

جمال الفيضاني

الخطار من ثلاث جهات

منتصف ليل الغربة

إشارة تليفونية

من: مديرية الصناعة إلى: مديرية الصحة
بناء على اشارتكم لنا بتاريخ اليوم، بخصوص وجود سرير خال
بالاستراحة طرفكم، نرجو حجز مكان باسم السيد/يوسف عبد
الرحمن... الموظف المستجد طرفنا..

مبلغ الإشارة

امضاء

تراجع البيوت على مهل، الدكاكين الصغيرة والاعلانات
والواح الزجاج، يصيح رجل مناديا على تاكسي بالنف، تساب
أغنية من بيت قريب، يذيعونها دائما في هذا الوقت، وحدة
الظهيرة، تزايد الحركة. الآن يمود الناس من أعمالهم في مدينته
البعيدة، كان اذ يرى أباه يصيح: هيه.. بابا جه.. بابا جه، لا
تذكره الأغنية بأيام راحت بل تثير في نفسه تراب الحزن الدفين،
أيام حلوة مزهرة مشرقة. جرى فوق رمال الشاطئ، احتوى البحر

بعينه وسامية بين ذراعيه، أطعمته بيدها لحم السمك المشوي الأبيض، مسح عن شفتيه قطرات ماء البحر مالحة الطعم، الآن بعض شفته، وقع عجلات الخنطور رتيب، الهواء حوله بارد، قالوا له إن برد المدينة شديد خاصة إذا ما نزل الليل، قالت أمه: إذا شعرت ببرد ضع جريدة قديمة فوق صدرك. ربما تقف الآن في الشرفة، تعرف أن يوسف لن يظهر عند منحني الشارع، أبوه لم يصل، ربما جاءت أخته الآن، كان يروح ويجيء بين الغرف، بقرص أخته.. يسألها.. هل تعرض لها أحد. يأكل بسرعة، يمد يده. يداعب ذقن أمه، تحكي له عما رآته عندما نزلت تشتري السمك، دأرت.. بحثت حتى وجدت السمك الذي يجبه، الأسواق ما فيها إلا التبار الصغير، عند رجوعها قابلت الست أمينة، كلمتها عن محمد الذي جاء وقرأ فاتحة سعاد ابتها، سعاد لم تتعلم، ولها ثلاث أخوات كلهن بنات.. أصلها ترضى بأول ابن حلال يجيء للبنات، يصفي يوسف. فجأة.. يسأل أمه: ألم تحضر بنت حلوة كالقمر وسألت عنه، فترفع أمه يديها وتطلب من الله تعالى أن يجعل هذا اليوم الذي ترى فيه عروسة ابنها. تجاوزت العربة آخر بيوت البلدة، الخلاء يتسع، النخيل يتشابك، الخنطور يمضي متمهلاً...

الأربعاء ٢٢ ديسمبر...

هل خاف الأطباء على أنفسهم من العدوى فأثروا العزلة. لكي

أقطع المسافة حتى المدينة لا بد أن أمشي نصف ساعة في طريق مترب خال تماماً من البيوت والعش، تماماً ما توقعت لحظة رؤيتي المبني، النوافذ مستطيلة وكبيرة جداً، مغلقة كأنها لا تفتح أبداً، أما الشرفة فقد أحاطت الطابق الثاني كله، محمولة على قوائم خشبية ترتكز على الأرض، لحظتها تذكرت بيوت مدينتي البعيدة ذات الواجهات الخشبية، آه من رائحة الغسيل المنثور في الهواء وملح البحر.. لو أغضض عيني وأفتحها وأجد الطرق والمتاجر النظيفة والنساء الجميلات، والبحر... لم يمر يوم إلا ورأيت، في الليل أُرهبه، أخاف لو مشيت فأجد نسي فوق مياهه، أمشي بعيداً عن السور، ربما امتدت يد غليظة الأصابع، شدتني إلى أعماقه، ابتعد عن وشيش الأمواج، العمق المحسوس غير المرئي، بدا المبني خرباً، عند عبوري حديقة الاستراحة الجرباء تيقنت أن هناك من يرقبني، اقشعر ظهري، طلعت السلم الذي يدور حول المبني، الدرجات الخشبية مغطاة بأوراق شجر جافة، الصمت كالجلجل، كأن العالم خرب، مدينتي البكر واسعة العينين لم توجد أبداً مع اتني فارقتهما منذ ساعات، فجأة ظهر عبد المقصود كنت متعباً، عيناى تكادان أن تغلقا حزناً وتعباً، انه طويل الجسم والعنق، جامد الوجه، ينظر دائماً في خط مستقيم، لم يرحب عبد المقصود بي، نفس الجمود الذي قابلني به الموظفون، لم أسمع من يقول حمداً لله على السلامة. أنا أيضاً بادلتهم نظرات الكره، خاصة الشاب المتأنق، والعجوز صاحب الصوت المليء بالرفاوي. تبعت عم عبد المقصود وصدايح

ألم في قلبي ، لم أصدق أنني بعيد عن سامية ، عن البحر وقد أسندت
الحقيبة أمامي... وأطرقت مدة يرأسي ، مغمضاً عيني .

« يوسف »

١ - الدكتور جلال محمود مرسى من ١٢/٧/١٩٦٨ حتى
١٣/٧/١٩٦٨ .

٢ - محمد فوزي عبد السلام من ٢٠/٨/١٩٦٨ حتى
٢١/٨/١٩٦٨ .

٣ - يوسف عبد الرحمن من ١١/٨/١٩٦٨ حتى

- يعني مفيش حد في الاستراحة غيري يا عم عبد المقصود؟
- ابوه...
- لو نزلت البلد دلوقتي ورجعت متأخر مين يفتح لي؟
- أنا... دايا تلاقيني تحت... ما بنزلش البلد غير قليل خالص.
- لكن السكة وحشة خالص يا عم عبد المقصود...
- شوف يا يوسف أفندي... الحنة دي طول عمرها خلا... ما حد هوب ناحيتها... والطريق خطر... وأولاد الحرام كثير...
- يعني الرجوع بالليل مش مأمون؟
- دا اذا جالك قلب وقدرت يا يوسف أفندي..

الاربعاء ٢٢ ديسمبر...

لا أعرف ما الذي يجري لي لو لم أحضر كراسي والقلم . في
مدينتي انقطع عن الكتابة بالشهر واليوم ألجأ اليها مرتين ، في العصر
كسرت عادتي ولم أنم ، البرد يشتد فلا أستطيع القراءة الا تحت
البطانية ، ثم لو نزلت البلدة ، مع من أقضي ليلتي؟ المقاهي قليلة
وصغيرة . في بلدي لو جلست على مقهى حي غير شارعني لنظروا الي
برية ، فكيف هنا والناس كلهم يعرفون بعضهم . قال أبي ان أهالي
البلدة كالحرم ينتهون من أعياهم ويدخلون بيوتهم فلا يخرجون منها
الا في صباح اليوم التالي... قال أبي ، الله يبعدك عن أولاد الحرام ،
قلت وعيتاي تدمعان والجرس رنته الأولى... سأقضي وقتي وأذاكر
الانجليزي... وأقرأ الكتب ، ونصحني بأبني لو استطعت أن أجد
شايًا في مثل سني... غريبًا ، ونستأجر غرفة أو شقة ، وبت أعلم لماذا
يقول أبي هذا ، حتى لا يضحك علي أحد ويوقعني في بستان قد تبعدني
عنه ، وتتطلع ما قد أرسله الي العائلة ، وعلى العموم نساء البلدة كلهن
لسن جيلات كفتيات مدينتي ، آه من الزحام والشمس الحلوة صباح
الجمعة عند محطة الترام الرئيسية والهواء يهب مشبعًا بزرقة البحر ،
عند المحطة رأيت سامية أول مرة ، بلوزة بيضاء ، جونلة برتقالية ،
جوربًا أسود ، حذاء أبيض كبيرًا ، عيناها بلون... أي لون... عسل
النحل... رأيتها كمطر خفيف ينزل على مهل في يوم حار ، أوراق
زهر صفيرة تكسو الرصيف في أيام مارس الأخيرة... نجا شاحبا
بعيدا له عيناان واسعتان ، وأنف دقيق ، وشفشان كالفرولة ، قلت لن

أجد مثلاً.. لو أني خلقت بنتاً لتميت أن أكون هكذا، لفترة حاولت أن أقيم علاقات مع فتيات يسكن في شارعنا، لكنني ترددت، وارتعشت قبل حديثي اليهن، ونصحني زملائي بالجرأة، وها هي، هذا الشيء الخفي الذي لا أراه ولا أدركه، لو ضاعت، لقضيت عمري بعيداً عن جنس النساء، حاذيتها وقلت لها أن قلبي ارتجف عندما رآها، واني أشعر بصداقتها لي من زمن، توقفت، نظرت الي وابسمامة على وجهها حيرتني، قالت: أه وماذا بعد؟ اصرار عجيب انتابني. سألتها عن اسمها وفي أي سنة هي. قالت أولى ثانوي. ثم قالت انني ظريف وطيب، وفجأة تبدلت وطالبتني بالابتعاد، قلت لها ان اسمي يوسف.. واني حاصل على دبلوم تجارة متوسطة، وسأعمل قريباً، واني أنوي دخول امتحان الثانوية العامة فلا بد من الالتحاق بالجامعة، وقلت يمكننا مذاكرة الانجليزي معاً، ضحككت وكررت انني طيب جداً، وسألتها أهذا مدح أم ذم؟؟ فطلبت مني بركة ألا أتقدم معها أكثر من ذلك، بيت خالتها يقرب، قلت انني سأنتظرها وأرجع معها حتى لو قضيت الليل هناك، ابتسمت وقالت لا داعي... تابعتها حتى اختفت، وكررت في ذهني عنوان المدرسة، فجأة صحت بأعلى صوتي، انطلقت أجري، أجرع هواء البحر، ألتهم اسفلت الطريق اللين.. وددت لو أوقف كل من يقابلني لأقول له كل ما جرى، ضحككت، داعبت أمني كثيراً حتى ظننت اني شارب حاجة، وقلت لها انك أعظم أم في العالم. عندما قابلتها ليلة سفري دمعت عينها. قلت لها ربما غبت عنك شهوراً،

قالت أسافر معك. ضفطت يدها، الكازينو خال الا منا، المصاييح الملونة تضيء في انكسار، وبقياء الأمطار في منخفض من أرض الحديقة وغناء من بعيد، قبلتها، تحللت أصابعي شعرها الناعم كالليل.. أقسمت لي بقرية أمها أنها سترسل لي كل ثلاثة أيام خطاباً، ستقول كل شيء جرى لها، وللمدينة، وفي المدرسة، اذا نزل المطر، اذا هاج البحر، لو دخلت السينما مع أبيها وزوجته، فستحكي لي بالضبط ما رأيته من أفلام، وعندما خرجنا كان للهواء طعم القرفل، المصاييح عالية، ضوءها يخنوق كصوتها لحظة الوداع، لو أنها معي لا تقلب كل شيء، عدت أصغي الى أزيز الصمت، تطلعت الى السقف المرتفع جداً، عندما سألت عبد المقصود عن هذه المدفأة الرخامية.. قال ان الانجليز كانوا يتدفأون بنارها، سألته هل حضر أيام الانجليز هنا؟ قال انهم هم الذين بنوا الاستراحة لمهندس الري، وكنت واحداً من الذين وضعوا حجارة المبنى وأخشابه فوق أكتافهم.. ثم عينت فيه، صمت فجأة وبدأ غير راغب في الكلام، أسند الدورق وخرج، لا أعرف ما يفعله في هذه اللحظة، كأنه لم يمه إغما يطل علي من ثقب الباب، ارتعش دمي، نفضت ما يتدافع الى ذهني، تأملت الكتب محاولاً اختيار رواية أقتل بها ما تبقى من وقت...

• يوسف •

تمسك يده بحافة النافذة، يرق شريط الضوء اللامع يكشف

وحيد تاما، نواة ملقاة في فضاء خلا حتى من النجوم والأرض
وذرات الرمل وسامية وحراشيف النخيل...

- صباح النور.. لا والله ما سمعتش.. أصل النور يطفي بعد
الساعة اتاشر.. وابور البلد يقف.

الخميس ١٢/٢٣

طلبنى المدير، سألتني عن مجموعتي في الدبلوم، وسرعتي في الآلة
الكاتبة... وأعطاني ثلاثة خطابات، طلب مني أن أنسخها، شعرة
يلمع وأسنانه بيضاء، يتكلم برقة، يتناول بين لحظة وأخرى قلمه
الخبر الطويل المغموس في بحيرة نحاسية ليؤشر به كلمة واحدة فقط،
كدت أقول له أن الاستراحة مزعجة وأنتي لن أرجع الليلة إليها،
غير أنني ترددت، ما هي ميراقي؟ خرجت من عنده. وفوجئت
بزملائي ينتظرون خروجي. سألتوني عما قاله سيادته؟ قلت لا شيء.
سكنوا، نظروا إلي بعداء، جاء رئيسي الشاب، أعطاني عشر
استقارات صرف لأراجعها، نظر إلى الدوسيهات الكثيرة أمامي،
قال لا بأس إذا كان العمل كثر عليك، لكن هذا لا بد منه حتى
تتمرن.. قلت أبداً، فجأة سألتني عما قاله المدير، قلت لا شيء،
وقللاً لم أر في كلامه ما يستحق أن أكرره، غير أنه اعتدل واقفاً،
نظر إلي بعداء لم يحفه.. كنت عهداً وعيناي مليئتين بالصابون

العربات التي بدت مستطيلاً واحداً، مرور العجل فوق فواصل
القضبان، قطار الثانية عشرة، فادم من السلال إلى القاهرة، مقبخر
لا يقف أبداً، يوسف يتابع بعقله الرجال النائمين على المقاعد الزرقاء
في العربات، آخرون يشربون الشاي، يأكلون الجانوه في عربة
الأكل، يبدو عليهم ملل، الرحلة طويلة، لو يركبه يوسف، بعد
ساعات يقف في القاهرة، ثم قطار آخر ينقله إلى البحر، لكم يبدو
بعيداً وبطيئاً هذا الوقت الذي سيمضي عليه هنا حتى يحصل على
إجازة ويسافر. يسيل الضوء ناعماً في الخارج، أضواء المدينة البعيدة
خافتة تزيدها بعداً، فجأة ينتبه إلى وجود رجال فوق القنطرة
الحجرية، هل عبد المقصود بينهم؟ لا يرى الملامح، أيديهم طويلة
تلمس ماء التربة، لا يجروا على اغراض عينيه، لو يأتى بأقل حركة
ربما تنبهوا إليه، تنبث من بعيد أصوات مجهولة لم يميز منها إلا ما
يشبه اطلاق نار، هل له صلة بعمل الرجال، لا يعرف من أي جهة
يحيثون؟ يظهرون فجأة، ربما يخرجون من الاستراحة، فجأة...
يضيق كل ما يراه، يتبخر الضوء الناعم، تضيق معالم الحجر، تحته
فراغ وفوقه، هل أصيب بالعمى المفاجئ؟ هل يحيط به غرباء؟
أقزام؟ عبالقة؟ لن يطلع عليهم النهار.. هالك، لن يعيش اللحظة
التي تلي هذه، لن يدري أحد، لن يحمله عبد المقصود، يتحرك
مشلولاً ناحية السرير، تنقلص أصابعه ممسكة بالبطانية، ينتزعها
بعنف، ويلفها حول جسمه، يصطدم أصبح قدمه بالقدم المدب
الخوف، لو قطعوا لسانه اللحظة لما شعر بألم، يسند ظهره إلى الباب،

الحارق، وعندني ميل الى القبيح، تحز قلبي صورة سامية.. بعد فترة جاء وأشار الى حقيقتي الصغيرة، قفلت له عما بها، كراستي ورواية لم أتمها، وثلاثة ظروف خطابات، ومحفظة نقودي لأنني لا أحمل نقودي في جيبتي، قال علي سمع من الآخرين، انه لا مجال لقراءة الروايات هنا، وأن العمل جاد وأنه هو نفسه لا يحب ان يحضر أحد موظفيه روايات أثناء تأدية العمل الرسمي، عند الساعة الثانية وقعت أمام اسمي، وفجأة جاء الساعي المعجوز وطلب أن أكلم المدير، تلفت حولي غير أنني لم أهتم بنظراتهم ودخلت الى سيادته، ابتسم ولاحظت يدهشة أنه قصير القامة، بعكس ما يبدو أثناء جلوسه، قال لعل العمل لا يكون ثقيلا على نفسي.. ارتحمت، فأرقتني الرغبة في النوم.. كأنها لحظة رؤيتي سامية مقبلة من ناحية البحر، قلت أبدأ ان العمل لا يرهقني، قلت في نفسي بعد دقيقة أكلمه عن الاستراحة، كدت أقول له أشعر بأنني أتكلم أول مرة مع انسان منذ وصولي، قال: هل تعرف أحد الموظفين هنا؟ قلت أبدأ.. سكت لحظة وقال.. أنا هنا مثلك وربما أنت أعزب لا يهمك لكن أنا عندي أسرة بقيمة هنا.. وللأسف هؤلاء الموظفون لا يكونون عن الحديث عني، سكت، ثم تابع، طبعا هذا شيء مزعج، ولكن لو عرف ما يقولونه بالضبط سيصبح الأمر غير ذي أهمية، كل ما علي أن أسمع ما يقولونه فقط وأنقله بالحرف الواحد لا أزيد ولا أنقص، وهذه المناسبة.. هل تكلموا في موضوع يخصني اليوم؟ قلت لا أذكر، لوح بيده وبدا وجهه غير مهم، وطلب مني أن أنتبه من

الآن، خرجت والرغبة في النوم تعاودني، ذهبت الى المحطة.. جلست فوق رصيف المسافرين، ثلاث بنات تلميذات وقفن بعيدا عني.. ينتظرن أوتوبيس الدبزل الصغير الذي يصل المدينة بالقرى القريبة، لم أنظر اليهن، أين هن من سامية؟ بل أين البحر، الطرق اللامعة المتعشة الى ماء المطر، الأشعة البعيدة كجناحي طائر محدودب، أين البهجة في وعائي عسل النحل المصفي؟ تضحك، تتقدمني الى الترام، نزل آخر الخط.. غشي بجوار البحر الذي يتنفس بقوة، فجأة نجري، تجلس في نهاية اللسان الحجري، أسند رأسي الى قنطرة، أحيطها بذراعي، ربما وأنا أحلم، لكنني أقطف ثمار القراولة والكمثرى وأشرب عصير المشمش، إذ تبدأ تأوهاتنا، نتحدث عن آمال نرجو أن تتحقق، وسفر لا بد من الشروع فيه، ليس من المعقول أن نقضي حياتنا في هذه المدينة، يا سامية، بعد زواجنا سنرحل الى السودان، الى أريتريا، الى بيروت، الى أوروبا، نطوف المدن البعيدة معاً، تجلس على المقاهي تحت سفوح الجبال، تخرج قلبا وورقة، نكتب تكاليف الرحلة الأولى، تثير بعض الاعتراضات غير أننا نتغلب عليها، ها.. ربما تفكر سامية فيما قلناه الآن؟ هل يعرف الموظفون أي مشاريع صغيرة رسمناها معاً، هل يدري المدير بأحلامنا.. كان دنياهم تتوقف على معرفة ما قالوه أو ما قاله؟ يشور في الخاطر أن أركب أول قطار الى مدينتي، الى سامية، وأسند رأسي الى صدرها وأبكي، أبكي بلا دموع، قمت حاملا حقيقتي الصغيرة، الرصيف خلا من الركاب، والفتيات رحلن

الى قراهن البعيدة، وسامية خرجت من المدرسة الآن...

« يوسف »

- أنت فاكرك كلفتك في ايه يا عم عبد المقصود. ايه رأيك تبات
معايه.. أدبك شلن كل ليلة.. السريرين واحد ليه.. وواحد ليك.
كل ليلة شلن.. آه والنبي، أحسن الأوده واسعة والبيت فاضي
والحثة كده شكلها يخوف.

لو معه راديو لسمع الأصوات المبيعة من العالم، هنا بيروت، هنا
لندن، إذاعة الجمهورية العراقية من بغداد، محطة الإذاعة العربية
من موسكو، عدن.. الجزائر تختلط الأصوات، تضعي النداءات،
حينئذ حاد يتحرك في دمه، لو يسمع أغنية من قرب، أصوات
الرجال تبدأ بعد قليل فوق القنطرة.. منذ ساعتين دخل عبد
المقصود، تلفت حوله، عيناه فحصتا كل ما في الحجرة. كأنه يدخلها
أول مرة، ثيابه المعلقة فوق المتجيب، الحقيبة التي لا زالت
مفتوحة.. الحذاء، الجوارب، القوطة الحمراء الملونة بخطوط سوداء،
المشط، سأله عما يفعله بالكسب، سكبت.. ثم سأله عن سنه، فقال
يوسف تسعة عشر عاماً.. قال إنه صغير، تقدم ملتحفاً بالبطانية،
أنهى الحديث فجأة، لا يدري يوسف ما الذي يفعله الآن. يطفىء
النور أم يقرأ عليه، عبد المقصود لم يطلب إطفاءه، لا يعرف هل
رجعوا الى القنطرة، لكن ربما يعرفهم عبد المقصود.. يظن أن يوسف

يرصد حركاتهم، فينالهم ضرر، قرض يوسف شفتيه، برغم أن مظهره
يتم عن نوم عميق، غير أن احساساً خفياً يقول ليوسف: عبد المقصود
لم يمت، لو نظر الى عينيه من الناحية الأخرى، لراها مفتوحتين..
خفت الضوء، بعد قليل ينقطع. منذ لحظات خرجت حفلات السيما
لأخيرة. أربع مرات دخلها مع سامية.. تقول لزوجها أبيها إنها
ستذاكر مع صاحبها، تاهت نظراته على السقف وهو لا يعرف ما
الذي تفعله سامية الآن..

السبت ١٢/٢٥

أربعيني الليلة عبد المقصود، ظل ساعة كاملة ينتظر الى
متجسداً كالحجر.. قطع ما كنت أود أن أسأله عليه.. حياته، نزلاء
الاستراحة، وحدته.. وفي الهواء تصاعدت رائحة عرق لم أشمها فيه
من قبل. بالرغم أنه تعدد من ساعة موليا وجهه الى الخائط فهو
يرقبني الآن، أذناه تسمعان حركاتي. تحصيلان دقائق قلبي، أنا
متعب، خطابات سامية لم تصلني بعد، كل يوم أسأل مدير البوستان
قبلي البلدة، أنا حزين وأكاد أبكي ولا أعرف لماذا يبدو عبد
المقصود هكذا...

« يوسف »

الساعة الآن الثانية صباحاً تقريباً.. أقصى عمق لظلام الليل،
يوسف لم يمت، حتى قطار الثانية عشرة لم يمر، يصير السرير فجأة،

يكف الهواء عن دخول رئتيه، حفيف جلباب، عبد المقصود لم يعد متمدداً فوق السرير.. ما الذي ينويه؟ هل صمته، اخفاء حركاته يخفي أمراً، يتزل يشارك الرجال فوق القنطرة، لا يتجه الى الباب، يقترب منه، لحظات الكابوس.. صراخه المكتوم من الأنف وشلل الجسم وضياح أبيه.. اصحى.. اصحى، ولو، فمن يبرع اليه هنا.. من يهز جسمه حتى يفيق؟ من.. من.. يصير السرير، ليس كابوساً، عرق عبد المقصود يلاً أنفه، عبد المقصود يلامس جسمه، يده الغليظة المشننة تسد فمه، أنفاسه ساخنة لزجة تقشر ما وراء أذنيه، ثقل جسمه، اليد الأخرى تمتد الى ينطلون بيجامته، الحجرة تفرق في زيت لزج، لو يصرخ.. لكن من يجيب لو يزعل..

«كنت تقول أنك لو نظرت الى وجهي لشعرت بحزن لا يحز قلبك إنما يشحن نفسك بما لا تدريه أنت، وسألتك كيف تحزن إذ تنظر في وجهي؟ قلت إنك حائر، وهنا في الغروب، كل ليلة أذهب الى صاحبتني سعاد أذاكر معها، وأرى وجهك أكثر من مرة في الطريق.. عند منحنيات الشوارع، أمام محلات عصير الفواكه، أتذكر مشروعاتنا للسفر، وأتخيل نفسي أنني سافرت وحدي، الى بلدة صغيرة عند حدود العالم، شوارعها مبلمطة وكنيستها قديمة، أجلس في مطعم له شرفة خشبية، وفجأة أراك تعبر الطريق، ولا أكون متوقعة رؤيتك، فأقفز من مكاني، أناديك، تدهش أنت إذ من يناديك بالعربية في هذا المكان؟ تفتح ذراعيلك، تدور في

الهواء، أسألك ما الذي جاء بك، وتساؤلي ما الذي جاء بي؟ ولا تسعنا الفرحة فتتمنى لو تحولنا الى طائرين صغيرين وطرنا الى أعلى الجبال المغطاة بالثلوج.. آه.. هل تذكر عندما كنت أتقدمك في نزول سلم السينما الطويل الحديدي المفروش بسجاد أحمر، كنت تقول لي.. أنت الآن تغزلين سلم البوينج، وإذا نخرج الى الشارع، نقول إننا اجتازنا الجمارك فلا شيء معنا لحاسب عليه، ثم تشرح كل ما تراه..

يوسف...

في اليوم الواحد أفكر فيك يومين. هل تذكر الجمبري، هذا الطريق الطويل المفروش بالظلال، ساعات يجيل في أن المدينة خراب بدونك، لم أعرف قسوة الفراق إلا لحظة موت أمي، ورحيلك أنت، سأكتب لك كل ثلاثة أيام، ربما كل يومين، وربما كل يوم، وإذا ما كتبت لي، فلا تكتب أقل من أربع صفحات فولسكاب، لا بد أن أعرف كل كبيرة وصغيرة عنك. أكلك. نومك. شربك، أصحابك، وقتك، كل شيء حتى أهدأ، حتى أستريح. وأخبرني متى ستحضر.

الخلاصة لك

سامية

أكلت في المطعم الوحيد، سألت الرجل عن مسكن خال حتى لو كان جعراً.. فقال إن مأمور المركز كان أولى، وإنه لا يستطيع احضار عائلته لأنه لا يجد مسكناً، ونصحني ألا أتعب نفسي فأهالي البلد لا يقبلون عزاباً، في العصر خنقني الغيوم، همت على وجهي، لا أجرؤ على اخراج خطاب سامية، منذ جئت أنتظره، عندما قرأت خطها الرقيق خجلت من سطورها، وبكيت.. وحدثت على لون الضوء المسال في الفراغ، والتوافد الكبيرة المغلقة، والرجال الذين يحملون أكياس الفاكهة الى عيالهم، أغرقني النهر حزناً كالتحساس الأزرق، وإذا رأيت بنات المدرسة الثانوية وثيابهن الرمادية تذكرت سامية، وارتعشت، كأنها تنظر الى مكان لا أراه، بعيدة عني، لكنها تلمحني من مكان خفي، وجهها في الفراغ، أيما رحت ينظر إلي برثاء، كدت أرمي نفسي في النهر، كدت أضرب المدير القصير عندما طلب مني في حدة أن أنقل اليه ما يقال حرفياً، وإن اعتبر هذا أمراً، بدا لي أنه يعرف تماماً ما جرى وأنه على صلة خفية بعيد المقصود، أما الموظفون فنظروا إلي بسخرية من وراء الدوسيهات، طلب لي أحدهم شاياء ولم أدر سبب الود المأجبي، كدت أرفضه، وفي كل رشفة شعرت بنظراته.. ها أنا أستفيك شاياء.. أنا لست أقل شأنًا من عبد المقصود طبعاً. آخر النهار سألت عم محمد عن مكان خال، فقال هذا مستحيل، حتى الباعة، خادم المقهى، هزوا رؤوسهم، كلهم يعرفون، حتى الرجال المحملقون

الى المحطة ليتركبوا الفطار، كلهم يعرفون، مهدوا لما جرى، لو أعود الآن الى مدينتي، يعرفون فوراً قلت فلأتم الليل على رصيف المحطة، أتأمل القطارات التي تجيء ولا تقف.. شربت شاياء، امتدت بخالب طيور صغيرة تنهش كبدي، نزول السواد يمنعي من العودة الى الاستراحة، مقدمات الغيب كالطاعون، تطردني البيوت الى الخلاء المؤدي الى غابة النخيل.

أنا عارف كويس أنك دورت على لوكاندة طول اليوم.. وكان فكرت أنك تسافر، ولا يشت فكرت أنك تمام على رصيف المحطة، لكن البوليس لازم يسكك.. أنا عارف أنك مش حتلاقي.. حتى لو لقيت، فعش ممكن تسبب الاستراحة برضه.. أنت هنا.. عندي أنا مش غخليك تحتاج حاجة أبداً. بس تقول لي على كل الي أنت بتعمله.. تقرأ الجوابات اللي بتبعتها لأبوك وأمك.. وأصحابك.. اذا دخلت فيلم تحكيه لي. أنا من سنين ما دخلتش سينما. وبعدين الكتب الكثيرة اللي أنت جايها معاك دي.. فيها ايه.. أنا يا يوسف من أربعين سنة هنا، عايش على أمل أنه واحد زيك بيجي.. يمكن اليوم اللي أنت اتولدت فيه أنا كنت بانئى الأمنية دي.. أنا وانت من هنا ورايح حتة واحدة.. الاستراحة كلها تحت أمرك حتى لو انتهت مدتك الرسمية.. حتفضل معايا، أنا هنا الكل في الكل.. ياما قضيتا سنين ما دخل علي حد غير الصراف بيجي يسلم لي الماهية.. شوف.. حتى المديرية ما أعرف طريقها فين.. هما

اللي يعرفوا طريقي..

« أقول كل شيء ولا أقوله، الآن لم يبق لي إلا أنت، خطايي إبيك يا حسني هو الشيء الوحيد الذي أكتبه على رصيف المحطة، ومن يدريي ربما فتحوه وأحدوه ليعرفوا ما قلته لك، أما حطانات أمي وأبي وأصحابي فأنا مطالب بتلاوتها أمام شيء لي أقول لك ما هو، إما.. إنه قوة لا بد أنا ملاقي حتمي على يديها، الناس هنا يا مامية غير أناس والعيون غير العيون، الحياة غير الحياة، كدت أسكي عندما أدركت في لحظة بمسها أنني لم أفكر فيك يوماً كاملاً، ملاحك بدت لي ناهية، أنا لا أكذب عليك، بل أصرحك تماماً. كدت أجري لاهياً وجهي، صرعي الحبس لك، حتى لو أرسلت صورتك الي فلر أسطبع الاحتفاظ بها ولا نعلمها في مكان ظاهر، هيا الشيء لو رأي رسك. أخاف عليك منه، ربما تعلك، ربما ذهب البك في مدينتنا.. ربما قصى عليك كما يقصى علي

- يوسف.. هات فلوس عشان الغدا.. اسمع. هات اللي معاك كله.. انت الفلوس حتميل بها ايه، ما تخلّيش معاك غير المصروف وده خدته مني كل يوم...

الاثنين ١٧ يناير

منذ مدة لم تصلي خطابات من مامية، خبر هادي، الآن أخاف عليها.. حتى لو عدت الى المدينة، حتى لو نقلت، حتى لو رجعت ورأيت البحر كل يوم، هل يعود ما كان بيننا.. هل تجري بنفس الحيوية، نضحك نأمل، تبادل القبلات...

الأربعاء ١٩ يناير

صباح اليوم طلعت المصروف من عبد المقصود، أخرج محفظته الكبيرة. قال إن الدنيا برد، وقال إنني صرحت مرتين أشياء نومي وأيقظني، كان يقف على بعد متر مني، عيانه ثبت السواد فيها، في الخارج علا ضجيج قطار، تقدم مني وأمسك عنقي.. يده داخلة، أعلاه مشعة برائحة الدخان لم أتحرك. قيدت مكاني بالآلاف الفسود أحاطني بدراعه، قال إنه لم يكب طول الليل عن الحلم بحسية التي قمت زواجها من عشرين سنة، ولم يقتل أهلها، قال إنه لن يدعني أذهب الى المصلحة، سحني الى الحجرة مرة ثانية، وكانت الشمس صميمة عاجزة. وكان يرحف وريقه يسيل، لا يعني.. ما الذي يقولونه إذا لم أذهب.. وهمس إنه اليوم سيطلع حماماً محشوا بالعريك، وعلا ضجيج قطار..

بروح المدير في الحجرة ويحيي، يداه مفتودتان وراء ظهره،

يثقي شفته السفلى، يعصها، ينفع الهواء ساحناً من فمه، يستدير إلى يوسف كأنه يود لو يسأل.. هل هذا صحيح، محروس أمهدي قال عنه هذا، كأنه لا يصدق.. لكنه يثق بكل ما يقوله يوسف الآن، بعد عدة أيام من نقله كل كبيرة وصغيرة إلى سيادته شد على يده، تأكد له صحة ما يقوله يوسف، كيف.. يوسف لم يعرف، ربما يتولى أحدهم نقل الأخبار اليه ثم يقارن ما يصل إليه، بدور المدير فحاة، يقسم أن ينقل محروس أفندي إلى قرى الضفة الشرقية من النهر، يخرج يوسف، يطلب قهوة، لا يبالي بنظراتهم. يطل على المدرر الصغير من النافذة المجهزة له، حفا. أي جرأة في تليع السأ إلى سيادته، لكن هذا ما سمعه فعلا من محروس أمهدي، اميك المدير لا يلاً عين امرأته، لكن هل رآها واحد منكم.. هل رأى الجوع المظل من عيسها

«.. حتى أنني وأرجو أن تعترفني ذهبت بالمطاب إلى صاحبي سعد، فهي تعرف كل شيء بينما لكنها لم تفهم. ثم تعرف، قالت ربما حسبك في ورطة، لكن الخطاب به ما هو أشنع من ذلك، ماذا جرى يا حبيبي، هل يهدك شخص ما؟ هل احطمتك عصاة، هل اداك المدير، ماذا جرى، أين حططت مستقبلاً، أين ما تواعدنا عليه..»

في الصباح، أعطاه المصروف وهو مسدد كالقيل، فمض أربع ليال يرقع من الغروب حتى حروح يوسف لا يتحرك، آخر الليالي بدا متوحشاً فاقد الوعي، ألمه حتى صرخ. بالأسى كاد يوقظه لسادله

الحديث، فالوحشة شديدة، لم يعد يقبل الوقت في المرأة، كؤم عبد المقصود كل الكتب في الحجر الأخرى كما يقول تشعل يوسف عب، أطل يوسف من النافذة غير أنه لم يجد الرجال الذين يهيئون إلى القنطرة، ها هو يعبر الطريق الخالي إلى المقهى، يقول الخادم أن البلدة لم تر برداً كهذا، منذ لحظات توسط الميدان الكبير، تعب فحاة، البيوت حوله، صامتة، كالملة. كأن الحجارة لها عيون وآذان، إنه وحده حتى النخاع والذو، لا وقع أقدام يسمع في المدينة إلا له، جرى في الميدان، الأهالي يظفرون من وراء شيش الوافذ المائل في اتجاه الطريق.. كاد يصرخ. مطاناً أي أحد، بشر.. جن، خفي، ظاهر، أن يتنرعه من هذه اشوارع، تنك البيوت، المقهى حوله خال، كل ما جرى يبدو له وكأنه يجري أول مرة، خطاب سامية الحزين مدمون الآن في درج مكتبة الشيء الوحيد الذي أخفاه، من يدره، ربما يعرف عبد المقصود كل شيء، فمض ليال سألته بدأب من علاقاته مع النساء، يوسف يتساءل بمرارة، لماذا يخفي عنه الخطاب؟ لو تجسس سامية الآن، سامية، لا أمل نسي، لا حديث خافت مهوس يدغدغ ما وراء الأذن، لا قبلات، لن يطبق البحر على جسمها كالخيمة إذ يقوضان فيه حتى العنق، لن يقفا أمام فتارين الأثاث، هذا الركن يصنع في الانترية..

يوسف.. الصالون لا بد أن يكون مودرن، كأنه يدرك صاعها أول مرة. الآن سامية هزينة، أمه، أبوه، كل أيامه البعيدة في مديته المسولة ماء البحر، عض راحة يده. يخاف أن يرى سامية فحاة،

ستعرف كل شيء، تهرب، تجري، ربما أخذها من يدها وذهب بها إليه.. علا.. ضاع كل شيء.

يوسف يقوم وائماً، الأمير المدببة تنفذ الى كليتيه، على الناصية، دكان لبيع أدوات الحلاقة، زجاجات العطر، الأمواس أبواع، المقايض حمراء، سوداء، الزجاج متسخ، أصابع قدميه تتوتر داخل حدائه، تتشابك يده، ربما رآها عند المقصود، يسأله.. لماذا يحملها، يعرف سرعة، ربما يرقه الآن، ربما صاحب الحل يعرفه، يضربه عند المقصود... يرقه، يرميه في التربة، لن يدري أحد، الحيرة شطره، يرداد الضوء قتامة.. والبرد ينفذ الى رثتيه، غمامة كبيرة ترحف فوق السبوت، يرفع عبيه تحتوي وحاً مشوه الملامح، جاحظ العين، كاد يعرف صاحبه لولا أن الريح أراحتها سرعة، يجرح صاحب الحل فجأة.. يقول وعيائه محمقتان الى السماء.. المطر لا ينزل هنا أبداً.

١٩٦٩

الحصار من ثلاث جهات

نداء:

الى سائر جنود الأعداء.

قواتي تطوق عبيكم من ثلاث جهات.

راباني يخلق فوق مواقعكم

قادتكم أسرى.

استسلموا استسلموا.

نداء الى ..

السيد أندريه مارو...

يعلق بالعلم، بلقست سأ صابكم بوعكك صحه، واسبى لأتجه ...

الى مدير المصلحة العام..

الى مدير المستخدمين

إقدامكم على حصر أربعة وثلاثين قرشاً من راتبي عن شهر مارس،

خطوة عدائية أدركها بعناية، واسبى إد أعرب عن قلقي البالغ

سبب

رغم الصين، ماوتسي تونج..

أرق أنيابي، لبلوعكم.....»

الشح عاشور المأذون .

في هذه اللحظات المخرجة من حياتي، أطلب الكف فوراً، عن
تكليف عبده النوب بالتجنس عليّ، وإبلاغ .

مستر ادوارد هيث..

المسيون في روديس الجوسية يقصون مصحفي، صرحاتهم تمنع اليوم
عني. أطلبكم بالتدخل.....»

في آخر الأدرج يستقر ملف أنيق أخضر، وآخر أحمر، خصص
الأول للرسائل المرسله كتب فوق اثاثي بخط نسى «سري للغاية»
يصم نصوص الأوامر الصادرة الى قواته، مواقعها، تحركاتها أثناء
معاركه المقله، الخطط البديله لصد حلمي زميله في المصلحه، ما
يقوم به من اعداد لاحاط هجائته، يضم أيضاً قراراته، هذا الملف
لا يفتح إلا بالصعق على فعل صغير، بطريقة معبئه. أرهق نفسه
كثيراً حتى اشتراء، توقف طويلاً أمام قترينات المكتبات لافرنجية
في وسط المدينة. بطاقات المايده، أقلام حبر في علب مطبوعه
بحرير، الورق الملون، قال السائح الأجنبي الملامح:

عندي نوع مستورد من فرنسا..

قبل طلوعه السلم القصير، التفت محذراً.

- نوع جيد جداً، لا مثيل له في بقية المكتبات...

على مهل يهز رأسه. يدها في جيبي قميصه، وقت طويل استعره
حتى قرر اتخاذ هذا الوضع لمواجهة الناس توقف كثيراً أمام امرأة
الصغيرة لمربعة في حجرته، راقب نفسه أثناء مشيه في شوارع
المدينة، في مرايا محلات الأثاث، انعكاس صورته في زجاج
الفتريشات، المرايا لصغيرة معلقة بهرات الأتوبيس، تعديلات
طعمة يدخلها عند الادلاء بجديت تيمريوي أو صحفي. دائماً يختار
الصحفيين الشئيين الذين لم يعرفوا بعد، يستدعي الواحد منهم،
بدلي إليه بأحضر التصريحات حتى عهد أمامهم انصريق عندما جاءه
هذا الشاب المحيل، بدا مرتسكاً، وجلالاً، لم يرض على تعيينه في أكبر
صحف البلاد إلا شهر واحد، ها هو يقف أمام القائد، ناداه باسمه
مجرداً، تلك عادته عند اللقاء بالناس، يدي الاسم الأول، يربل
الحواجر، يصنع الهيبة ويبقيها في الوقت ذاته، عند اللقاء حطاب
أمام جماهير لا أول لها ولا آخر، توصل ابن بطر حربية لم يسقه
إليها أحد من عطباء التريخ الاساني، صور الاسكندر توحى
باطراقه رأس معسة لم يتحل عنها، وقعة ملوك اعراعة سقر وصفا
الهيأ جاؤوا به من السماء، أما مشية نابليون فتتحد من صمم
اللوحات، في أيام عطلته يذهب الى المطار خارج لمدينة، يحطا

طبيئة يمضي الى صالة المسافرين، يقرأ لاهيات الشركات، يتأمل
الراجلين، يرفع يده محيياً الجاهلين على مهل يستعرض حرس
الترف، مرفقوه بشون خلفه حتى يتيحوا لخلق فرصة رؤيته،
أعلام مبنية، صوره معلقة، زهور تنثر فوقه، طفلان جيلان يسعدان
مه، يقلدانه باقة. على مهل يطلع السلم الى شرفة الرائرين.
المودعون يقفون، يندس بسهم، يرقب هدير الطائرات، حركة
العربات فوق أرض المطار، يرفع يده مودعاً، لا تنظر إليه عباس
لكنه يرفع كلتا يديه، أطفال صفار، قنابات، رجال يرتدون
القممات، أي بلد يرل إليها في العام، يعرف لمة قاطبيها، الوجوه،
يدرك الهمسات، المحوى الليلية، متاعب نهاية العمر، يخاطب
الجهاد، يسمح همسات النمل في أعناق جحوره، يوجه الطيور الى
مواطن الدف، يأمر سفراءه ومندوبيه بالتوجه الى الزعماء الكار،
يطلب منهم رقماً بحاثث الحداث من دوس الأقدم، اشفاقاً على
قصرات البدى من أشعة شمس حارقة. أصول رسائله وبرقيات
يصمها الملف الأخضر، يحتفظ بها، يوفر جهداً سبيله علماء تاريخ لم
يولدوا بعد، سينافسون في تدوين سيرته، استقصاء أخباره،
يحصمون موقفه للتعليلات، كل أهة وبطرة في حياته الآن ستصح
همهم وشاعلمهم، وثائقه وقراراته يحفظها أيضاً حتى لا يريف أعداؤه
حقيقة مواقفه

ونلاحظ في رسالته الى السيدة أمديرا غاندي، رئيسة وزراء

الهند وقتئذ، أنه يلم ثقافة هندية واسعة، ويفسر هذا وجود عدد
من الكتب في محلاته عن البراهمية، والبودا الأعظم ويؤدي
هذا الى التساؤل، هل أضمر بية صم الهند الى دولته العالمية التي
أرسى...

وتؤكد دقة العبارات التي حاطب بها نابلو نيرودا، بعد فوزه
بجائزة بول، أنه نظم الشعر، بلع درجة من رقة ابحاره حتى لسدو
الفاظه صافية كطيران قراشة فوق عير حقل من السوسن ومن
الماسب أن يورد ها تلك المصقوعة الشعرية التي عثر عليها بين
مخلفاته، وللأسف الشديد لم يصلنا من فيص عبقريته سوى تلك
القصيدة. وبعض أبيات أخرى...

«فتحت سنائري لتدحل اسبابل الصغيرة

«تقبت ورق نافدي ليخرج البعوض المسكين

«أحب العنران، فأترك لها شيئاً من الأرز...

«أرحم الجحوم فلا أشعل مصاحي قط...

وبالتأكيد، لو فرغ لكتابة الشعر لكسبنا - قطعاً - شاعراً
عالمياً. أما قصائده القليلة، المنظومة عبر مشاغله العديدة،
ومسؤولياته الجسام فقد أمر باعدامها قبل وفاته، حتى لا تتحول الى
ما يشه التراثيل الدينية لدى أتباعه، ومحبيه في.....»

أول الليل يحمت ايقاع اليوم. يشحب، يادي باعة، يرقن باع

صعدي على الملح زعيماً حزينا يائساً من انعدام القوت ومجيء الليل، يذبح أطفال أوصافاً حديدية، يود لو حاطه أفعال الدنيا واحداً، واحداً يسمى به سيحي، يحذر من أمور ستقع بعد قليل، يحقق لكل منهم الأنبيات العذاب، والأحلام اطرية الخصر، يرجوهم ألا يسحروا منه، ألا يرجوه بالخصى، لو رأوه يقف يوماً فوق سلام مسجد، أمام مبنى حكومي، يعلن رسالته، يهيى اى العالم ظهوره بعد طول استتار وكنافه احتجاب، أه لو يستعيد رحلة النائع الصيدي عبر العمر الطويل، حنينة الى بيوت الطين، وشيش سقف السحيل، أرعة اخبر ساحة كهود العدارى، روحة بعيدة وصغار يترجم له صرير الساقية، ما تقوله ذقات وابور الطحين، ما يهيس به الصدع الى الضفدع، يرقق للمائع شظف أيامه، يحمل أيامه حبايات، يخرج الى المقهى المسيح، يجنب لقاء الأصحاب، يستشر عذاب الجمرات في احترافها، يرقق لأوجاع كوب زجاجي يقاسي سخونة سائل، يأبى عن بؤرة الصحيح، صعب اللاعين، رجاء ناعة السبيط، والجمري، حضرات ماسحي الأحذية لصديقهم، يتساءل، هل يعرفون الجالس بينهم؟ أيدركون موقعه من حركة التوزيع؟ لو عرفه أحدهم الآن، سيقم، يتسم، يسأله عن اسمه، عنوانه، يكتبها في مفكرته ذهبية اللون، غصصها لتدوين أسماء بشر قاموا به يتواءم مع رسالته. جندي مرور ساعد عجوراً على عبور طريق، شاب تخلى عن مقعده لامرأة مسنة في مترو مزدحم، في مرحلة معينة من عمر الرجل الذي كشف حقيقته يفاجأ بالشرطة تدق بابه، لا..

لن يرسل إليه الشرطة، الأهل رجال مهذبون، يقولون له.. سيادته لا ينسى أبداً، يذكر أحاسيسه في الرحم، أنت تقدمت منه يوم كذا، في مقهى كذا، صافحتك، تعرفت اليه في وقت جهله الناس، تاهوا عنه، سيادته يديك هذا السلع لتصلح به أمورك وتستعين على قضاء حوائجك، تفصل بعد أيام أربعة نديارته، ستشر الصحف قصة اللقاء، كيف تم، أي عبارات قيلت؟ افعالات الرجل، تظهر تعذبات صغيرة موجرة، يجري الصحافيون تحقيقات عديدة حول الرجل، حنايه قبل اللقاء وبعده، أيما سر في اشوارع تشير إليه الأيدي.. هذا الرجل صافح سيادته بيده، يتجه إليه أقاربه ومعارفه يطلبون منه التوسط لقضاء حوائجهم، ها هو عرمي، عرمي أقرب أصدقائه، يتجه إليه. سمح عرمي مستشاراً لشؤون قواه عرف مكانه في المقهى، لا بد أن عبده البواب أحبره، لا يكف اللعين عن تنمعه.

- يا رجل بحثت عنك كثيراً.. مالك؟؟

- أهلاً.. أهلاً

لا بأس من تسط أقرب أصحابه في الحديث. لو أثبت عزمي ولأهه تماماً سيسد إليه ادارة البلاد البطوية تحت رايته، ربما أبدي ضيقاً لأنه يتوي تعيين سامي رفيق دراسته في أشد المناصب حساسية، يعرف كيف يوفق بينها، كثرة مشاعلها لن تدع للواحد منها فرصة الصيق بالآخر.

- أدعوك الى السنا

القيام بأعمال العالم أمر صعب، لكنه بالتأكيد يتقبل دعوة صاحبه الى السنا. ثم مأدبة العشاء، يضيّق بخاطر عابر، لا يد أن يقيم له مأدبة مماثلة في وقت قريب. يرهق مصروفه، سكن دعوة عرمي يطر الآن اليها بعين الرضا، بارتياح. عندما يعود الى حجرته، ينتح الدولاب، يخرج دفترًا صغيراً يحوي أسماء أصحابه، يسمهم درجات، يقرن بكل منهم ما يموي تكليفه به، سيقدمهم بنفسه الى الجاهل، يشرح تاريخ علاقته بكل منهم، ربما أصاب الى مهام عرمي مهمة أخرى، حقاً سيدي المؤرخون ملاحظة، لكنه سيقدم التفسير، يتحدث عن كل من أسدى إليه معروفًا، مقرضه وقت العوز..

«.. ولم يعرف عنه أي تهاون مع أصدقائه لذين أسند اليهم مختلف المناصب، شدد عليهم أساليب الرقابة، في الوقت نفسه لم يكلف أيًا من أقاربه - برغم كثرتهم - بأدنى مسؤولية، بل لمجدهم يعيشون حياة عادية جداً، لا يتمتعون بأي امتيازات، والدهش..»

تتعلق عيناه بسفح حجرته المنخفض، لا يسمع دبيب خطوات ساكني الطوائف الأولى أو لسائرين فوق الرصيف الهادي لقاعدة نافذته الوحيدة. منها يرى معرضاً من سيقان، وأحذية، وقفاقيب،

وحذاء، يتبدل، يبرق، يتغير، عندما وقع عقد الايجار مع النسيح عاشور لأدون صاحب العمارة، أحضر مصحفاً، فتحه على سورة ياسين، طلب منه أن يقسم بينا حالصاً لوجه الله تعالى وحده، الا يترقي في حجرته، ما يحشاء أن يزني أحد السكان في ملكه. وقته يقضيه على المنفى الواحه يرصد الخلق، عنده اسواب يقدم إليه أدق الأخبار يومياً، حتى الآن لم يتخذ قراراً بشأنها، هل يعد لعبد الواب محاكمة عليه، أو يأمر باعدامه رمية بالرصاص، أو شبه على نار بطيئة؟ أبداً.. سيلتزم بعدالة، سيطالب بحامين للترافع عنه، سيجاسبه القضاء الماريخي حساباً عسيراً، لماذا ينتح عليه باب الحجرة دون إذن؟؟ منه مفتاح إصافي، ولا يعني هذا. يسخر منه علامة عند حروجه ودخوله، في أمسة حادة، لحطه امساكه بمصان النافذة يستكشف الآتي. زحبح عنده البواب فوق الرصيف على أربع، اندفع فجأة محدثاً نغمه صوتاً مرععاً، دفع به الى ابواب، اله سقوطه فوق حافة سرير الحديد عندما هدأت دقات قلبه، أيقن أن هذا لم يتم مصدفة، هناك قوى عظمى دفعت عنده البواب الى هذا السلوك، لم يم سنة بأكملها، عانى طويلاً حتى اعد قراراً معيناً، منذ فترة يستشعر بدايات هجوم أعدائه، لا يملنون عن أنفسهم إما يأتوه متخمين وحتى يملن عن موقعه في حركة التاريج، لن يشق باسان، أو جاد، ولكن ربما تعرض لمحاولة اغتيال. تقوده قسلة ولا يمكنه اتخاذ حرس خاص من رجال الجيش أو البوليس الحاليين الى الاستبداد، عرمي قريب الى قلبه بش تماً به، قائد

الحديث، يتشعب، يضر، على مهل مهل، نجاة يرجع، تشابك أصابعه تنفرح ثم.

* خلال هذه الحقبة من عمره، عانى مصاعب، ونزل به صيق، ويرجع هذا الى صالة مرنبه الذي لم يتجاوز العشر جسيهات وأربعين قرش وقتئذ، وربما يفسر هذا قراره الذي حير المؤرخين طويلا، مصاعبة مرنبات العهل وموظفين، وبالتأكيد حطرت هذه الأيام في روحه آثاراً لا تمحي، حاتم صدي اعلم، أمي بدركه قبل نومه، كثيرون يتألمون في أحباء الكون، لا يقدر على تخفيف جروحهم، عانى ليالي عديدة بسبب نيا عن زلزال في ايران، مجد السطور في وعيه. يسمع صرخات الصحايا عند انقلاب قنار، ينفص قلبه إذ تسقط عصمورة في إسار فخر، يود لو يحول جسده درات، يدوب في أهواء محمد لنلايا، تزيقاً سحرياً يبيء بالمصاعب قيس وقوعها، رعشة هذب تنبئ بقدوم غائب، دهاناً سحرياً يقرب المسافات القصيه، درجه من حرارة تدفئ المرأيا، تخفف آلام الأرض إذ يخفها الصلب القاسي.....»

- بصراحة يا معلم عدوي.. أقصدك في جنبه وعشرة قروش..
حتى..
أزاح عن صدره ثقلا، أذاب عبثاً، مبدأ المعونة لا يشين.

قوانه والحاكم لاداري لا سيتم غزوه من أقاليم، منذ الآن سيتم تكليفه مهام حراسه، يشي محوره، يصحبه معه في انقي، يمارقه أمام الملل، الأفضل على معرفة مه حتى لا يكتشف عنده المواب شخصيته، أوفاب مشيه بفرده بتنه عرمي عن قرب، بمصي الان الى المعلم عدوي باحر السط والأور، يتردد كثيراً قبل دهانه إليه، لا يرفض له طلباً، يتحدثان في أمور الدنيا، يتساءل المعلم عما تنويه أميريك بالسط ٥٥ يسر في أعاقه، المعلم عدوي يسأله هو فقط، يعرف مجسه الفطري الصادق أين يلتقي ما يشي غيبه، وتجيء اجابته معددة موجزة، تدركه حيرة مفاجئة أثناء حديثه، ماذا يقول رؤساء الدول عند لقاءهم في المطارات. أي عبارات يشدولوب، إذا يعاقبون في أول مرة يلمعون فيها ٥٥ تدق الساعة ثنائي مراب، يقوم فجأة، يصمغان معاً ان موجز الأساء، يضرب ركبته بقصة يده..

- فطبع.. ما يحري فطبع.. فطبع..

مدابح فينسم مسمرة، رسثله الى اجترال كاوكي لم تجد، ناشده طويلا الوصول الى حل مع مواطيه لميتاميين. هل صعب صوته بحيث لا يسمع في مايجوب ٩٩ من يدي. ربما علم كاوكي بمصوب خطاه ان هوشي مه، لكنه لم يحكي اراءه، قاعدة لم يجد عنها، لم يرضي كاوكي على حساب احباء رأيه في هوشي مه، المعلم عدوي حائر، في أصبع يده السمي ثلاثة حواتم دهسة، رائحة لدجاج في الأفاص، أوعية فجار مليئة بالبرغل المنول، يلتحم

« لم يخف ما مر به .. والحقيقة إن الصدق المذهل في يومياته
ليحمدا . »

تري، أي منصب بسنده الى المعلم؟؟ في أي موضع سيقب
بجواره عشية انتصاره في أكبر معاركه ضد أعدائه، لو مال بصباحاً من
التعليم لكان الأمر، هل يمكنه تسمية الثروة الحيوية والدجاجية؟؟

« .. لكبه كافأه بطريقة أخرى . بدأ يروره كل شهر مرة . عصي
إليه بلا موكب رسمي ، مرئياً حلة خالية من النقاشين ، والأوسمة ،
تنوقب سيارته أمام الدكان ، يوم المعلم ، يقف الحارس الخاص بعيداً ،
يبقى السائق في العربة ، يعانق المعلم .. »

- أشكرك يا معلم عدوي .. وسوف أردك أول الشهر ..
- ولا يهيك يا أمير يا ابن الأمراء ..

إن يضع ذبيقة واحدة ، ليمض الى مطعم أبي حجر ، رائحة
القول والزيت ، وأوعية الخل.

« .. وهذه صورة فوتوغرافية لدكان أبي حجر الذي أصبح
الآن متحفاً قومياً ، وهنا .. »

يبدو الخادم المحوز جافاً هزيلاً ، يراه في الافطار ، في موعد
الغداء ، في العشاء ، عندما يحلو الخل إلا من ناعة وصية يعملون في
ورش قريية ، يجيء ، يوماً في الحادية عشرة تاحر قهش متحول ، بسد
لحافات الثياب الى كرسي مجاور ، يطر الى طوق العول ، يصيف إليه
ملحاً ، درات كمون ، رائحة شطة يخرج من جيب صديريه حافظة
جلدية كالكيس ، يرفعها الى أعلى ، يدخل يده ، يخرج قصاً من الثوم
بقشره ، يقطعه قطعاً صغيرة يضيفها الى الطبق . يقلب الحلات ،
يرسها ، يتراجع متأملاً ما في الطبق ، يبدأ محاصرة حبات العول
بثلاثة أرغفة ، يشرب كوبين ماء ، يأكل ثمرة نصل يأتيه في الخادم
كخدمة خاصة ، الخادم ينام في الدكان ، تساء كيف يحتمل العجز
قوة الملاط؟؟

« .. من الأحداث المهمة التي رواها في مذكراته ، المشورة
بمختلف طرق الشر بعد رحيله الأيدي بخمس سنوات كما أوصى ،
إد حدث أنه لم يستطع الرقاد لينس بأكملها . وجه الخادم يتعفه في
حجرته ، أقسى ما يوه نه منظر عحور بكذ ليتقوت ، الرجل مسح
في مشيته ، مقعدته لا تلامس كرسيه ، دائماً . يراه واقفاً ، يلبي
الطلبات هـ ، وهاك ، أغرب ما يلحظه نابوياً صغيراً مجهول اللون ،
يطل من ياقة قميصه ، قام في منتصف الليل ، تناول جاكته بديه ،
احدى جاكيتين يملكها ، (يراجع الفصل الخاص بشانه ، ومحلمتها)
خرج دثرته بروده ، المقهى المواجه أعلق أبوه . ذهب الشيخ

عاشور، لكن عسده النواب لا ينفو، يبقى مستيقظ لحمي المارة من الدنس.

أخيراً، توقف، طرق باب المطعم الصباح طويلاً، جاء جندي الحراسة، وقف لم يمارق موضعه، (قام أحد الصحفيين بالبحث عن هذا الجندي، وفعلًا قابله، وشر رواية للحادثة، يراجع كتاب «ذكريات معه»). بعد وقت صر الباب ارتفع الى أعلى محدثاً ضجة، أطل الخادم، بدا أشد نحولاً، الليل والهودة، وقسوة الرقاد، اختصروا من جسمه قدراً، قال «تفضل - تفصل يا عمي.. الدنيا برد..» لم يقل العجور حرفاً، أحد الجاكنة، كأنه انتظر طويلاً تلك اللحظة. أعلق الباب، وهالندع المذكرات تتحدث: «بظرت الى الجندي، همست «تصيح على خير»، أصفيت الى تردد خطواتي فوق الاسفلت الليلي، سمعت العسكري يقول: «ياما في ادب أولاد حلال»، ارتعشت شعتي، صمعي أم وأحاطتي طمأنينة، على الرعم من وحشة المدينة، وادراكي التام بترص أعدائي، احتمال انقصاصهم علي. ابتعاد قائد عدم قوتي وفقدان اتصالي به في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لم أنال، رأيت وجه العجور المنقب. دمعت عيني. وفي جوف الليل أخرجت الملف لأحر، أصمت فراراً جديداً الى قراراني، أي عجور في ديباي لن يشقى أبداً، أبداً...»

بعد عبور الميدان أصفى الى صوت رفيع يتردد من حلال مكبر الصوت.

«الي رايح يقول للحاي، والحاي يقول للرايح، الحاح تيسير اتبرع بألف جنيه عشان الغلاية تاكل،

يا لحمننا يا سوحد ربنا، يالي نتغدى بغاشة، وتتشفى ماورد، بخسرين بس يابن العبيطة.»

تدقق التأثر في صدره، لم يحس العالم من الطسين، يحطى بطشة اقترب من الدكار، الحاح تيسير وراء مصدة عالية، أمامه صندوق رجائي يمتلئ بالكسد والكلاوي والقلوب، عيافته كبيرة، مسم الشيشة لا يفارق فمه...

- أتوجه بأسمى معاني اشكر إليك يا حاح.. أنت رجل خير..
سا فحوراً بدكاه، بادبائح المدلاة من الخطاطمب، التمت الى صمي يسك ساطوراً.

- شوف حاجة الاستاذ يا بني..

يحني مرات، كاد يصطدم بأحد الرجاثر، عيا الحاح قاسينان.

«حسين قرش يابو العيال، عشان الاهاي تتعدى، الي متعاط متنا يعمل زياً، ابوه يابن العبيطة..»
- شكرا يا معلم. شكرا..

توقف الحاح عن التدخين، يسك مبسم الشيشة كما يسك العصا، لم يتم حديثه عن اسبسية العمل وعظمته، أسرع الخطى متعباً الحاح لم يفهمه، على وشك ايدائه، فكر في ارسال مندوب إليه

بسان

يؤسفي أن أسبي الى اعالم فراراً اتحدثه بخصوص قائد قواني،
وحاكم الأقاليم استطر عروها، وقائد حرسى، عرمى على شاكر، إد
أبدى سخرية مي، وأهان مشعري أنا أقرب الناس إليه، من
أوليته ثقى، واتحدثه مستودعاً لسرى الدفين، من ها ثررت اعفاءه
من كافة ماضيه، وتحريره من الأوسمة والنياشين المموجة له مي،
مع احتفاظه بالوشاح الأعظم لأنه يستحقه فعلاً، ويقتل اسمه من
ملفي الأحمر وممكرتي الذهبية، الى الملف الأسود، وسوف أتولى
جميع مهامه بنفسى..»

يطيل التأمل في صفحات الملف الأسود، شطب محمد أميدي من
قائمة خصومه، صباح اليوم قابلته أندى باحيتيه وداً رائثاً بعد جماء،
بعناية أضاف اسماً آخر بعد طول تردد، الشيخ عاشور صاحب
العباره. الملف لا يصم من آدوه وحابوه وصايهوه في حياته، إنما يحوي
أسماء عديدين من أزمته قريبة وبعده، الأعاصير المدمرة، قاطمي
اصبح جيفاراً، مقاربي البصات، مغلفي الرنازين، نابليون،
الاسكندر، الطاعون، تمورلك باي الاهر مات من حماحم الشر،
هتلىر، جوريج، تجار الرقيق، صابعي السلاسل، هند بنت عتة
ماضعة كبد حمرة بن عبد المطلب، مثقلي صدر بلال بالحجر، العابت
بشقي الحسين، قضاة أحمد بن حنبل.. ربما سئل يوماً، وكيف
يتخلص منهم؟ إن الاقتصاص من الشبح عاشور، وحلمي رمية،

يشرح وجهة نظره، أو برقة مطولة يعلى تأييده، لم يمارقه الحيرة
حتى المساء، جاءه قائد قواته وحكم الأقاليم التي سيتم فتحها، أو كما
يسميه الآخرون «الرجل الثاني» صاحبه، حاطه بالناظ وده، في
مثل هذه الملاحظات يتجمع من اراسم، يصرف كأي اسان بسيط
عادي لا تثقل كاهله أعباء حسام. بدأ يتحدث اليه عما قام به الحاج
تيسير كيف تبرع بألف جنيه كاملة، قام، راح وجاء في الحجرة
الصقة، ربما كان الحاج واحداً من حلفاء الخير. قام عزمي قائد
القوات، تقدم منه، دفعه في صدره، صفان من أسان يلعبان في
فمه، لم يره ضاحكاً من قتل هكذا، لن يسمح للعلاقة أن تصل الى
هذا الحد من الساطة، يصحك عزمي، ما انذي يجري؟ هل يواجه
ترداً من أقرب الناس إليه، أخطر شخصيات معاونه، تراجع
خطوة، عليه الترام الحذر، في مثل تلك المواقف ينعطف مجرى
التاريخ. رفع يده أمام وجهه، قال بصوت عال: «الحاج تيسير من
حلفائنا. الحاج تبرع بألف جنيه ويسع الكيلو محسب قرشاً»
بقهقه عزمي قائد القوات، ترتعش عضلات وجهه، يتعاقب عليه
رحام تعبيرات صامتة، عزمي يمسك بطيه، يصحك حتى يحني، هل
سي دوره كحارس خاص في تلك الحقبة، هل يكشف ظهره
للأدود، لمدير المصلحة، لعمه الواب، لساثر الأعداء، هل يدعه
وحيداً بلا سد، ربما اسأله إليهم، لا أمب في الدنيا، يراجع
حذراً حتى يلتصق بالجدار..

والمدير عليظ الساعدين، كيف شعر الصدر، ووالد شهيرة التي
شرع في حطوبتها يوماً ممكس، نكس. وحتى لا يجرح، أعد مد الآن
أحوبة جاهرة، متقة الصياغة لكل ما سوف يوجه إليه يوماً

« .. أعيد صياغة تواريحهم، لا تمنحني عظمه الإسكندر، لكن
يميني كم عدد صحاياه، وبدلاً من البحث عن قرة لمحيده، رعا
سشناه، ألقيا بقاياه في البحر.. لا تمنحني صلات مدير المصلحة
وأقاربه وسلطانه، لن أعبأ بأعجاد داليون، أو ملكة الشح عاشور
للعمارة..

- نلاحظ أنك أدرجت الفتر والآلام والخوف في الملف
الأسود..

وهنا أطرق الرعيم، قطب جبينه، زم شفته، ثم اعتدل فجأة..
- القضاء عليهم حلم كوني أبدي.. مجهداً الإنساني المحدود
واللا محدود مخلق حيوشاً لا تهرم، محارب الأوبئة، بعتال الأوجاع
نطرده، إلى كون آخر.. »

إلى عرمي علي شاكراً، قائد قواني وحاكم الأقاليم التي سيتم
غروها، وقائد حرسى، وصديق عمري سابقاً.

بملى تابعت استمراركم في السحرية مني، والمهزء في أمام أعدائي
في المنهى والمصلحة وهذا لا يتيق، وأرفضه بشدة.. . أنذركم..

أما الشيخ عاشور، فلا بد من البحث عن أسلوب مستحدث لم
يصل إليه إنسان لتعديده، عندما طرق الباب اضطر إلى إحقه
برقية تهنة إلى الملك محمد ظاهر شاه ملك أفغانستان بمناسبة عيد
ميلاده، ومجموعة ردود على خطابات أرسلها إليه أطفال من أركان
الدنيا، يحطب كلا منهم باسمه، أحباباً أثناء سفره، بأمر يوقف
القطار، أو السيارة، يحدث طفلاً عابر طريق، أو فلاحاً كادحاً، أو
إمرأة عجوراً تحمل قفصاً من نور وسط، تنجى إلى السوق لتسعه،
يسأل عن مصاعب الحياة، كيف تحمل، وكثير من رجال شعبة لا
يعرفونه، خاصة في المناطق النائية، يتصور فيما بعد وقع الخير على
وحوهم المتعة، الطيبة، عندما يعلمون أن محدثهم هو الزعيم
بداثة، يستعيدون كلماته وهجته، وطريقة إخراجهم للألفاظ، أحد
الخطابات هنا يسأل كاسه الذي ما زال في مقتل العمر، هل يتحدث
كثقية الشر عندما يحلو إلى نفسه، ما الذي يفكر فيه قبل نومه
مباشرة، كيف يخاطب أصدقاءه أه.. يدركه ألم، كتب إلى الطفل
النائي، يشرح ما وقع من عزمي، ما أنه ترك في نفسه جرحاً لا يلتئم
وعداًباً نسياً يئوه به لحظات الوحدة. يصايقه ما اتحد صدده من
أجراءات، ملف واحد يضم اسمه واسم الشيخ عاشور.. دخل
الشيخ، قعد، أصابعه تدحرج حبات المسحاة، بصر في أنحاء العرفة
رفوف مثقلة بكتب، كلها تراجم ذاتية لعطاء

«وتوضح الصورة صق الحجرة، يبدو إلى اليمين الدولاب
الصغير الذي ضم الملفات كلها، القرارات، والبرقيات والبيانات

- أنا لا أكذب.. أنت أدخلت عندك امرأة، وقضيت معها وقتاً

بين الصفوف تجلس شهيرة، والمعروف أنه احتار قريته من أبناء الشعب، في سبب حياته الصعبة وآها كثيراً تنزل سلم العارة أثناء ذهابها إلى المدرسة، أمسك قصبان الناعدة، إذا سارت فوق الرصيف، يدق المص في حداتها وساقها، إذ يمر من بجانبه، لم تشعر بعاطفته النقية قط، لم تدر شيئاً عن البالي العديدة التي قصاف يحلم بها، يراها بجواره في لحظات معاناته فل اتخذ قراراً بمس ملايين الشر، أبدأ، لم يعاً عندما احداها بعد وصوله بما جرى يوماً عندما توجه إلى الطابق الثالث، بعد تلميع حذائه وإضفاء بريق عليه، جلوسه في وقار أمام والدها فضي الشارب، أصنع المظلات، حين راح يستجوبه بدقة..

- من الآن لا تصلح ساكناً عندي.. أنا رجل صالح لم يدنس بيئي مخلوق، قطعت على نفسي عهداً ألا يرتكب ربا في بيتي نجساً..

إلى الرعيم، إلى الرعيم، أمل العالم، وقائد القوات التي لم تعرف الهزيمة،

المتصممه للمشاكل والحلول، وفي المقدمة السرير الحديدي الصغير تحت الحذاء القديم مرتوق التعل والققاب وزوج من الجوارب، والمعروف أن خطته بالنسبة للجوارب تتلخص في شراء زوج واحد، يرتديه يومياً، يقسده بماء بارد قبل نومه، وعندما يتمرق يلقه ثم يشترى زوجاً جديداً، وبجوار السرير مكان حال احتله يوماً مقعد قديم سرقه عبده البواب، ويلاحظ في الصورة عدم استواء المرتمة فوق السرير. ويرجع هذا إلى غارة مفاجئة قام بها عبده البواب، سرق حلالها فطعني خشب من «مله السرير». وسب هذا أوجاعاً وآلاماً.

- هل تذكر عندما عرضت علي استئجار عرقي أي شرط اشترطته عليك؟

تدرك آلات التصوير، بينما يقف في المواجهة رافماً كلتا يديه

- نعم يا مولانا.. والله لم أحل به أبداً..

«سيداتي، سادتي،

ما يشهده الآن لا مثيل له، القاعة حافلة بصور المطاه الحاصلين على الجائزة من قبله، السيدات يثرن زهور البانسيه التي صرح سيادته ذات مرة بحبه لها، أبناء وطني..»

إزاء استفزازات الشيخ عاشور، وتهديداته، نرجو منكم التمسك
بضبط النفس...

- اهربوا علي يا مولانا. عنده الراب يطمع في تأجيرها لأحد
أقاربه..

وهذه صورته قبل إنتهاء آخر معاركه، وأشدّها ضراوة، وقد
تبدأ عواوين بعض الصحف الصادرة وقتئذ، ومقطعات من خطاب
النصر..

« محاصرة العدو من ثلاث جهات »
« إيادة المرق الرئيسية والتوغل في... »
« قاد المعركة الأخيرة بنفسه... »

« أخرست الألسنة، هزمت الأمراض، أسرت الأوبئة في قمقم
محاس، نعت رياح السموم، طوعت الخناسين، منعت نزول الأمطار
في غير أوابها، منعت الجذب، دفعت الرزق إلى شباك
الصابدين... »

- والله يا مولانا لم يحدث شيء من هذا.. أبداً..
- تأخر الإبحار لمدة خمسة شهور، قلت النصر جميل، جاؤوا
وقالوا أنه يصرخ في الليل، قلت ربما المرض..

إسمع.. بدلا من تشريدك في المحاكم، وأقسام البوليس، إبحث
عن مكان بعيد عن بيتي.. وأسأحك في الشهور القديّة..

« ويتحيل الفناء في هذه اللوحة الرينية الرائعة، لحظة استسلام
الأعداء، يبدو سيدته ناظراً إلى بعيد، بينما يقف في أسفل البوابة
بشر وعظماء من حطب تاريخية محتلة، لكن المير ظهور عزمي علي
شاكر في.. »

- لا تحاول.. لن يرق قلبي لك.. لن تبقى في بيتي .

..نرجو الحفاظ على ضبط النفس

يقوم إلى أين؟؟ ما موقف الأجيال القادمة من هذه اللحظات؟
شوارع المدينة أهواه حيات شرهة، يحاول الأعداء محاصرتها، الآن
أدرك حططهم، يتربصون به، الشيخ عاشور أو طلائعهم. ألم يجلس
أمام المارة لمراقبة السكن؟ منذ لحظات فكر في إتخاذ قرار، أعاده
عزمي إلى ماضيه، يوليه قيادة القوات، لكنه يكتشف الآن عيب
ما فكر فيه، حانه أقرب الأصدقاء، أحر الأحبة، صاحب عمره،
انضم إلى أعدائه، يفود فيلقهم، يعرف مواضع ضعفه، الهين من
حصونه ودفاعاته، عزمي علي شاكر يقف في صف واحد إلى جوار

الشيخ عاشور، عبده البواب، مدير المصلحة، كافة من ناصوه
 العداء، أصرروا له الكراهة. عرني يرسم الخطط لتطويقه، أه من
 ضياع العمر الطويل، يريدون حرمانه من لحظة يعمل فيها النصر
 عليهم، ترفرف بيارقه على محوم لا يدرك هابتها نصر، يعموه من
 تنفيذ قراراته، عاربت بالأنواع والآلام، بسرعة فتح الدرج
 الثالث في الدولاب، يعرف ما سيقومون به، في فغلة من الخلق
 يهجمون عليه، يكتمون عنه، يعموه من النوح، الاتجاه إلى الأفتدة
 والقلوب لما ينويه لسائر الشر، يعرف قوة الأعداء، ينوء بجبانة قائد
 قواته، لكه سيارلم بطريقة أخرى. يلهم الشيخ عاشور أطراف
 قفطانه. سيقراً على الساس من نافته الهادية لرصيف الطريق
 آماله، ما ينوي تنفيذه، عندما تصل إلى آذانهم قراراته، تبدل
 الأمور، يقفون سداً حائلاً، حصاً ميعاً لم يحسره قائد قواته الخائن
 من قبل، سيدمعون عنه الأعداء، ياعدوه على الاسراع في تنفيذ
 ما يويه.

- اصفوا إلي.. اصفوا إلى ما اعتزمته بشأنكم..

تروح السيقان وتحني، أحنية قديمة وجديدة، أرض ملولة،
 الطب أسمر برج، أين مستأروه الذين اسدعاهم من جوف
 التاريخ، أين؟.. يرفع الشيخ عاشور عصاه، يبدأ الهجوم المعلن،
 لكنه يحيط قصص النافذة بدارعه، باليد الأخرى يفتح صفحات
 الملف الأحمر.

- اصفوا إلى قراراتي.. اصفوا إلى ما....»

البلاد ابعية

عدلي عبد الرؤوف..

السيد عدلي عبد الرؤوف..

رجاء التوجه بسرعة إلى الطائرة..

أيها السادة ترحب بكم، تطلع الآن، الرجاء ربط أحزمة الأمان
 وعدم التدخين، رتاعاً ألف قدم، يصل بعد رمي غير محدد إلى
 جبال قاف، أرض واقى الواقع، ثم نظير إلى جمر بعيدة نائية لا
 يسكنها غير ساء جميلات مستباحات، يرجو لكم رحلة سعيدة عبر
 ممرات جبال الألب المحورة في عبق الصحور المحللة بانثلوح.

سنطوف حول بحيرة جيف، ثم تشربون الميرة في ميونخ،
 تزلون في ريكيا فيك عاصمة ايسلندة، طائراتنا تتجنب جبال
 الحساس، والظلام التي تمنع الطيران وراء البحر المحيط.

السيد عدلي، نهشك بسلامة الوصول، هنا نيويورك باريس،
 روما، هنا لرجانوا، ربريرج، ها موسكو، طوكيو، ها ستياجوا،
 مدريد.

السيد عدلي.

السيد عدلي عبد الرؤوف.

هنا.. هت سالوط، سالوط ما بعد العصر وقتل العروب،
سالوط بيبة، مكشة، العار أماما وفوقنا وتحتنا، يحجي العمر
الصائع، يطلع الفار من أرض سالوط، ينزل من سماء سالوط.

الآن بالدات هذا الجزء من الثانية، كأنه يرى اللافتة القديمة
فوق رصيف المحطة لأول مرة، يلحظ الحروف السوداء الباهتة فوق
الأرضية الرمادية، في طعوله ويحيي إلى المحطة يتقدمه أبوه، يجري
وراءه، لحظة أن تلامس أقدامهم رصيف المحطة، يزعق.. اهد
عدي.. اهد عن الرصيف يا ولد.. يخاف أن تزل قدمه، يسقط بين
العلىكات، يخاف عليه مع أن الطريق حال ولن تأتي قطارات،
سالوط الحروف الصائفة، والهواء في لون التربة، من أين اسم
البلدة العريب؟؟ كم رجلا وامرأة وقفوا مكانه، راحوا، جاؤوا
سير.. وبقيت البلدة هم أو بدوتهم، من الآن حتى صباح اليوم
التالي لن تقف قطار، عدا قطارات البصاعة الكثيرة العربات،
الحالية من الركاب، تمتع الملل، بطيئة، في الليل أثناء يومه يسمع
صرير عجلاتها الحديدية واصطدام مندمات العربات ببعضها عندما
تهديء لتقف، في الثامنة والنصف، بداية الليل، لحظة إعلان
الراديو عن بشرة الاحبار الرابعة، إشراق المحر في نصف الكرة
الأرضية لآخر، لا يصدق هذا سهولة، كيف الليل هنا والنهار
هاك؟ في هذه اللحظة تماما، يرق قطار الديزل القادم من أسبوط،
العربات التي يراها في الصباح، يعود في مساء، يوم الوحدة من

القاهرة في العشرة، تنتهي رحلتها في أسبوط، يعود أول الليل، منذ
وقت قصير، قال فؤاد، وعيون المسافرين تنطلق إلى محي
الأكبرس.

لو أنني نزلت الميا وركبت الديزل لضمنت رحلة مريحة،
عربات الديزل لا تدخلها ذرة تراب، لا تشعر بها باهتزازات
العريق، ولا طول المسافة..

لحلتها، انتفخ قلبه، وخرته دهايس، لكم يبدو فؤاد شابا
وصغيرا، عاش مدة قصيرة في المدينة مع هذا يشعر أنه يعرفه من
بداية العمر، قال منذ ساعة ونصف بالضبط..

لا بد أن ألقك عن قريب.

ابتسم فؤاد.. صحك..

توحيشي، سأرسل لك خطابات.. لا بد أن نراسل..

كلمات متعادة تقال بلا معنى، فؤاد سيساه، لن يذكره، لو
أرسل خطانا لن يكتب الثاني، الآن، يروح، يحيي فوق الرصيف،
فنيات صغيرات، حافات، ثياب مرقعة، عائدات من الملح، صيق
عيسه، مشيتين بطيئة، ضحكتهن متعنة، فيها إرهاب يوم عمل
طويل، كأنهن غير موجودات. حلم يمر به، ماء التربة لا يتحرك،
تلاميذ من المدرسة مقلون، صمتوا عندما اقتربوا منه، رفعوا
أيديهم بالتحية، يعرفهم جميعا بالاسم. عائلاتهم، تفاصيل كثيرة عنهم،
أخرج دفتر مواعيد القطارات، لا يسافر أبدا، إلى اشتراه لتتبع

القطارات المارة بالمحطة، يتأمل أسماء البلاد والقري، خطوط السكك الحديدية الواصلة بينها، يغمض عينيه ويتجمل الأكسبريس الذي قام الآن من مجمع حمادي، بعد مدة ينظر الساعة، الآن يقترب القطار من أدمو، نواد ركب قطار رقم ٨٧، في اربعة والثلاث تحرك، منذ ساعة ونصف، ساعة ونصف؟ ربما سنة، ربما عدا. لا يصدق رحيله، بعد خمس دقائق يقف القطار في مناعة، يموي عبر البلاد الصغيرة، إذ يلاص العقرب الصغير ارقم الحادي عشر، والكبير الثاني عشر. ينصف الليل، يترن نواد، تضي ساعات ثم يروح إلى الأبد، تبتلع الموانئ الممعدة، صفارات لسفن، ودفع المقاعد الوثيرة في الطائرات، عربات الباص العربية الألوان، ذات الطافين، في مدن كل سوتها محده اسقوف، محطة بحديقة صغيرة، أحواض زهور، الباتورات الملونة في الميادين المسيجة، المبين، دفع الهواء إلى صدره، احتوى السيوت المنكسرة سحابة اسياح الحديد وعروق الحشب، أسند قدمه إلى الدكة الصغيرة، الآن الآن، هذه اللحظة بقرر، لن يبقى لحظة واحدة هنا، لن تشرق شمس جديدة عليه في هذه البلدة. لن يجيء هار يصحو فيه ويذهب إلى المدرسة، لن يمس رأسه في مائها، لن يلتحف بطانية تحت سقف بيته. لا بد، هذه اللحظة، تلك الثانية، الآن، الآن، قبل احتفاء عربة النقل السريعة هذه، قبل أن يعلق هذا الرجل ندي يتشاءم فمه، لا بد أن يمضي. يدوب، يتلاشى، يحرم روحه بالشابر، يرميها في الفراغ المدفوع أندا، يمر عروقه حلا طويلا يتعلق به، يرتبط بعمه ساق

الرخ، يرحل، يرحل، يلم أجزاء جسمه في مكان بعيد قصي ولاء، أما هنا، البلدة، السيوت القديمة، بات الخليج المهككت، لعمر المنقص في الحواري الصيقة، الوقوف عند دكان النقالة، رنين الجرس في فناء المدرسة، مشية اسانظر، حوف التلاميذ، نظرات ارجال إليه، دهابه اليومي استظم إلى محطة القطار، تأمله اركاب، ترى ما اسم هذا الرجل، تلك المرأة التي تنظر من وراء رجاء عربة الأكل، أهي متروجة أم لا؟ كيف تسافر بمفردها، ربما أعراها شاب واحتل بها في عربة انقطاع، بالصطف في العربة نفسها، هذا انسان، لا بد أنه موظف كبير يسافر مجانا على حساب الحكومة، أطفال مع أمهم، أبوهم ينتظرهم عند الوصول، يوقف أمام نافذة بطل منها رجل يرتدى اللباس البلدية، حول أصمعه حاتم ذهبي كبير، لا بد أنه مقاون أو تاجر غلال، ضابط بوليس في الدرجة الثانية، يغمض عينيه، ربما بلدته الأصلية اسكندرية ويعمل مأمور مركز أو رئيس نقطة في بلدة قصية بحرف الصعد، الصبي يبدو على وجهه، صبي أو تعب، لا، إنه ضيق بعودته من إجازاته، ربما يقيم أطفاله في اسكندرية ولا يراهم إلا في الاجازات، زوجته كرهت أن تقيم معه في الصعيد، إذن تقيم بمفرده في شقة باسكندرية، من يدري كيف تقضي وقتها، ربما صاحب شبا عما فالرحل يبدو عحورا قبل الأوان، ينقر عذبي اقتندي خطواته، يمر آخر قطارات الركاب، يعود إلى طرقات البلدة، الغموض في جوف الليل، صراخ العقير المددود، من

هناك؟؟ الرحام لحظة الخروج من السيجة ليلة الخميس، تحمله لما
سبحري طوال الليل بين الرجل وساناء، أكد فاليلة ليلة جمعة،
خوفه من القرعة، ما تحمله من رمم، ابتعاده عنها، مرور العربات
فوق الطريق، اللحظات البطيئة، يوم الجمعة الحامل الشمس
الكثيب الخالي من الحركة، نزول العصر القتم فوق البيوت،
الحرارات المولية إلى العرب البعيدة، المشي فوق الزراعية في ثوبا
برد الشتاء الأرق، مصنع السجاد، حجرة فؤاد التي رأى الدنيا
فيها، كل درة هواء، تملأ اعراع ما بين هدا، كل، لن نغد طريقها إلى
صدره في شيقه التالي

فؤاد: ألم تذهب إلى الحسين؟؟

... رمان زرتة مع أبي

فؤاد: إذا قست لك أن بيروت فيها من الأماكن ما يشبه الحسين
هل تحب المكان؟؟

.. رمان زرتة وكنت طفلا مريضا.. رحنا أيضا السد
السدي..

فؤاد: يا سلام يا أستاذ عدلي، تطبيق اللقاء كل هذه السنين
هنا؟؟ البلدة كلها شارعان، أنا من ساعة ما نفلو هنا ولا
أطبق روحي، أنت عمرك كله تسميه هـا..
.. احك عن بيروت..

فؤاد: طعا تعرف ناس البلدة بالاسم؟؟

.. كلهم.. حريمهم وعيالهم.. خمسون سنة أراهم كل لحظة.
.. احك..

فؤاد: لن يكلمك رعيك كبير محشو باشاورمة غير ليلة واحدة..

...؟؟

فؤاد: لحم مشوي على وهج النار، لكن عموما لحاة غالية جداً
هناك، إنما لو أمسكت لن تنس في اليوم أكثر من عشرين
ليلة

...؟؟

فؤاد: العملة اللبنانية.. تساوي رسميا حوالي عشرة قروش
وعمليا عشرين.. معك فلوس في لبنان تشتري كل شيء..
كس شيء ممكن تتصوره تشتريه بالمصري في لسان..
المصري يعني البقود..

سواد الليل، لا تبدو تفاصيل البيوت، البلدة مطموسة،
الانعاس لا تعبر الجدران إلى الخارج. يتصاعد بخار الماء كضباب
القوام، من الحقول القريبة، يهدد الصمت إلى مرارته، خطوانه
بطيئة، يكشف اسلدة من جديد، لم يعيش أبدا لحظات الليل هذه،
دائما يمر آخر القطارات التي لا تقف فلا يمكنه رؤية وجوه ركاها، في
انتاسعة، يمضي إلى كشك التحويلة، العامل ستم اسئلته المكررة، مد

سنوات فرح جدا، لأهم نقلوا العامل وجاء آخر، بروج، بجالسه،
 يحصر له فطيرا مثلثا وجسا قديما، يسأله، كأنه لا يعرف شيئا، ما
 الحكمة من السجافور، كيف لا يخرج الفطار عن القصص، هل
 السائق هو الذي يدور بالعربات عند المحطات أم أن القصص تحدد
 المسار، كيف لا تقفر عربة فوق الأخرى خلال الاندفاع السريع،
 الليلة يتمنى لو تكلم فؤاد حتى العجر، لحظة خروج لسعة البرد،
 خطوات واسعة في البداية، صرير الحشرات يرتفع من جانبي
 الرعة، أربير في أعماقه، يمضي الآن إلى بيته، يتح الباب، رائحة
 الرطوبة والأثاث القديم، الست بارد، لا تضئ حرارة موقد، لا
 تدفئه صبيحة طفل، يعلو تساؤل أمه، هل وصل بالسلامة؟؟ مقول..
 جئت الحمد لله، فوق الطلية يأكل سرعة، يقوم، يعمل الصحو
 والأواني، تش أمه، لو باسطاعتها فعل ذلك لما تأخرت، يعمل رأسه
 من العمار، يتحلل الماء ما بين أصابع قدميه، بالعوطة بحفف وجهه،
 يبحث عن قماشة يندك بها قدميه، يدور في البيت، ينوه واسعا عاليا
 لماذا؟؟ عروق الخشب مصلوية، الجدران قاسية، يتأكد أن نافذة
 المطبخ مغلقة، قمعا بحكم، اعرف حالة، يطل داخل كل واحدة،
 يتراجع أحياء الباب الرئيسي، يدقعه، يزه، يتأكد من اعلاقه،
 يسأله، تحساح إلى شيء؟؟ تدعو له، تطلب منه ألا يتعب نفسه،
 السهر مرهق عنه وعلى صحته، يهر رأسه، الكلمات واحدة، كل
 ليلة هي هي، لا فرق بينها وبين الليالي المنقضية، يدخل إلى سريره
 الخالي، الرطوبة تمتد إليه تحت العطاء، يحيط وجهه عدا أنفه

وعينيه، فجأة.. يقفر، بالصسط نفس اللحظة الليلية، يطل برأسه
 تحت السرير، اعراع التيم، رمي تسلل أحد، يدبجه إد يعمو، يصعي
 إلى وقع الرمس الليبي الرتيب، الأصوات البعيدة حيث سعف
 التحيل، لا تنصي دقتى حتى تحرره مئاته، لا يمكنه النوم إلا إذا
 أفرغها تماما، لو تردد إلى دورة المياه عشرين مرة، يعود، يتمنى
 النوم، نوجع أمه، يسألها عما بها، تقول لا شيء، لا يدري.. نام أم
 لا؟؟ في الصباح يقوم على صرير المسه العتيق، استقاظ السابعة
 المرهق، النهار الضعيف يتلوى في الخارج، تبدأ الدراسة بعد قليل،
 يقوم، يتشاءب مرات، يتحسس الأرض بحثا عن شبيهه، يمسك
 ظهره، صباح خير، صباح النور يسمعها واهمة، لكم يرعنه عسيل
 رأسه بالصابون، كل يوم منذ خمسين عاما يفضل رأسه بالصابون
 والمياه الباردة، رأسه وقعه وأسنده، ثم الدورة، يخرج، ينس ثيابه
 بسرعة، يأكل بسرعة، بيضة واحدة مسلوقة وقطعة خبز، ترقه أمه
 بنفس المضرات، يدس المعطة في جيب جاكته، الشارع خال،
 يكاد يجري، في الطريق الواسع تنصه خطواته، عندما يسرع
 تنحني قامته الطويلة جدا، الرفيعة، يثير منظره الصبية، تبدو يداه
 وكأنها لا علاقة لها بجسمه، لاحظ هذا منذ عشر سنوات، من
 لحظتها ينشئ متمهلا حدرا، أحيانا يهر رقبته وكعفه، يعدل وضع
 جاكته، يرفع يده بالتحية خمس عشر مرة، عند الفطرة، أمام
 الخلوة المردحة المنحثة إلى لقرى البعيدة، في نفس المكان،
 تراوده الرعدة، أه لو رجع، يستكمل نومه، ما أحلى النوم حتى

العاشرة، يتشاب، خمسون سنة، تحية الناظر، الصابور، أصص
الزرع، ابورود، الفصول كثيفة الطلاء، الادراج، كل ثلاثة تلاميذ
يجلسون فوق لدكة، الروائح الكريهة التي تملأ الجو فجأة، في
النداء، كان يصيح . من أتاها؟؟ من أتاها يخرج؟؟ وطبع لا يفهم
أي واحد منهم، لاحظ أنهم يكتمون صحتكا إذ يرقق فهم، من
أتاها؟؟ أه لا بد أن الكلمات تخرج بطريقة توحى بحرية، الآن
عندما يشم رائحتهم يصيح، افتحوا اشباك، اصحوا لشاك في عر
الشتاء، الكلام المتاد، لو عاش الف الف سنة، لن يتغير، الجو هو،
اللائظ هي، لا تتبدل، أكل، شرب، نام، صرب، عاط، زاط،
هبط، صعد، نزل، طلع، أمسى، أصبح، ما زال، كأر، لأن،
حيث، هي، هو، سافر، رحل، وصل، ودع، ساح، رأى، أن،
يرهقون، يمتحون أفواههم. في الظهيرة يلعه التراب، لحظات ما قبل
يوم العصر، موت الیقطة في الخارج واقع غير ما يراه ويلمسه،
صمت نفس كحبل، لو فتح الباب، فل يلقى غير المراع المجهول، لا
أثر لقدم إسان، الظلام يدرك الظلام، لا حس، لا خبر، يسمى بو
أوقف قطارات الدنيا، سفتها، وطائراتها، حتى عربات الرحيل
الصغيرة، ينزل الركاب، يوقعهم في طابور طويل يقاس بالسنين،
يسأل كلا منهم عن حكايته بالوسط، لماذا سافر؟؟ من أين جاء؟؟
إلى أين يمضي؟؟ إذ يرى الناس ساعات النصف محوار الرعة، ماذا
يدور في أذهانهم، هل يشعرون بتل ما يشعر به، يرونه بأي صورة،
اه لو يرى نفسه من الخارج، لو يسمع وقع صوته في الآذان

سيد عدلي..

هل تفضل الرحيل بالطائرة، أو المركب؟؟

الطائرة ثلاثة أسابيع. أما السفن فلا تتم الرحلة إلا بعد عدة
شهور.

لن تأكل فوق ظهرها غير السمك، وعشب البحر المطبوخ،
وزيت الحيتان.

أي الأنواع تفضل؟؟

في التوبيع راحة وسرعة، لبوش أمة ثم وجبة إصافه، خدمة
ممتارة، مضايقة بالنسبة للصوت لكنها آمنة.

تفضل، اجلس بجوار النافذة، لا تفك الحزام، أوثق نفسك
جيدا.

عندما تصل إلى البلاد الصغيرة الرقيقة الواقعة على حافة
العالم، ستلقى أمامك، كل ما رأيته في المحلات الأجنبية وكسب
السباحة المصورة التي أخذتها من قواد، ستركب الرحلات فوق
الجليد، ترى ابدحان يتصاعد من السوب الصغيرة المعلقة، العيبات
الجميلات يمشين في الطرقات يبحثن عن صديق، رمال المصايف،
المظلات الملونة، العوص في أعناق الحار، دخان البراكين، الفادق
المعلقة في العابات الكثيفة، للبيئة بالوحوش، وصراح القردة،
الاطواف الخشبية اسابجة فوق الاسار العريضة، سريعة الحرى،
طلوع الجبال، السحب تطرفه من أعلى، أنت تركب العمام، حير

السما المفتح ، ستري هذا كله يا سيد عدلي ، الآن ، اربط حرامك
جدا أوثق نفسك ، أوثق نفسك .

عند عبور الكوبري الخشي فوق المصرف ، التبت في نهاية
الطريق ، كيف عاش حسين سه أياما متشابهة ؟؟ يوم واحد يعني
عن بقية الأيام ، ليلة بهاره ، بهاره ليلة ، طوله خمسون ، سبعون ، مائة ،
انكش قلبه بين ضلوعه ، انسال داخل فقرات ظهره حزن صلب
رفيع ، خمسون في سواد وحل الابراهيمية ، رحلت ، جرفها الموج
الراكد البطيء ، نظراته تنوء ، ضالة ، بلا دليل ، خمسون تبدو
كالباب الصغير الذي يتوسط العربة الاحيرة من قطار راحل ،
راحل ساعة مغيب ، استحالة انفاذ بالجسم من أبواب السماء إلا
بسلطان ، أي سلطان يعيد إليه ما انتقضى ، ضاعوا إلى أبد لن
يدركه ، لم يدور العام من كلام يؤاد مسحا متسع الاركن ، يوشى
في خط مستقيم ، لا يجيد ، تبدد البلاد ، تتلون الوجوه ، اللغات ،
تتغير ، المحار كلها أسرار ومخاوف ، في جرر نائية ناس يأكلون
الباس ، كلها أعاصير ، تارث ، أمواج كالجمال البراكين الحامدة
تجذب الحديد فيصيع المسافرون ، من ينجو ، يعيش لا يموت أبد
الدهر ، ثم الاحساس بالبعد اسحق عن الوطن . في انطارات
البعيدة ، عوده الأم الخف ، أسى عحور ، طويل الحالب ، شع
اللامح ، يفقد الحامل جنينها ، خمون ضعت ، ماتت في
الابراهيمية ، كانت أمامه الفرصة لبدأ الرحلة عبر الخط المستقيم ،

كان يمكنه لسفر في كن إجازة صيف ، يرى جردا من الدنيا ، ثم
يرجع ، لم يشه ، لم يفق ، الآن ، الليلة ، ربما دم ، ولا يفتح عينيه ، لا
يرى العالم ابدا ، سألوط حق . انطلق بحري ، نطمه الحزن ، الخوف ،
الألم ، على مؤخره رأسه ، كاد يرمي نفسه في المصرف العطر ، يدق
رأسه في حجارة الطريق ، ضاعت خمسون ، رغاوي صابون ذابت في
هر من السيخ والشهور ، المتلاحقة ، أين اللحاق بها ؟ وعندما سأله
أمه أن يسبقها ، عمره رغب عني ..

فؤاد:

قل أو رحيل ، كنت ألف مصر ، العادة اسكندرية للمصيف ،
أسوان للشتاء أما أنا فسافرت في عربة لاندروفر إلى واحات
العراة ولجوير بالمبظ والسحوبة ، مرسي مطروح لا يطأها في
الشتاء غريب ، رحت إليها في الصقيع ، وقفت عند صحور البحر ،
الموج عال بطاول اجال ، أحصر في نور الررع انقل بالثلوح
والرهم ، صدقي يا أستاذ عدلي ، دنت ، تلاشت صعت في السماء
الوسيلة والصحرا الاجرد ، في عروب طالت وقفتي ، الليل غير الليل
في أي مكان ، فجأة خفت ، ربما طلع علي مخلوق غريب يشدني
ويرمي في القاع ، لن يجدي أحد ، لن سمعي أحد ، ربما ينقصل
الجزء الذي أقف عليه ، يهوي في الفراغ اسحق . دنت ، حريت ،
زعقت بأعلى صوتي ، لم يحوي أحد ، احتلط صوتي بالريح والموج
والصخر والبيوت الصغيرة المعلقة ولعشش الخالية ، ليس حوفا

بالصط ما فاحأني، إنما فرحة ورعة في السكاء، وأمية لو احتوت
البحر داخلي وطاحت الصعر في جوي، أما الطريق فحال مهجور
من كل إنسان وحيوان، حتى طست نفسي في أحد الأيام الأولى
للدنيا، مبر الخلفة، وأني وحيد، يتم، لا أحد في الكون كله،
العالم كله، عيري..

يعرق بناء المحطة في بخار الظهيرة الزجاجي، الدهشة تزم
شميه، مد لحظات رأى صلعة الباطر، نمر من صوته، ثلاثون سنة،
تدور الأرض ملايين الدورات. في كل دورة يرى الناظر، يعايشه
أكثر مما يعايش أمه، ألم يكشف صلته إلا اليوم؟ سأله الرجل، هل
يؤله شيء؟ هر رأسه، عبر السماء المتسع إلى الطريق، التربة لا
تتحرك، فوق الرصيف باب الفصل الثانوي، ينقلهم المطار إلى
القرى، اطلأ البرجاة، قلوصلأ زي المدرسة السيط، البلورة
السواء، الجونة الرمادية، نقط الخير الجافة فوق الثياب، ثمار
التفاح الحصرأ التي لم يدركها العطر، القصصا تشع الصهد
والوحدة، رائحة الماروت المتساقط بين الفلنكات، يعرف عدد
الكتب الحشية المترصة بي وضع أفني ثايت، من أول الرصيف
حتى نهاية الجسر، ثلاثة وتسعون، عندما جاء الماء من شهر
وبرعوا العلكاب القديمة، حولوا مرور المظارات إلى اتجاه واحد،
بعد أن أنقأ عملهم، أحصى الكتل الحشية، ثلاثة وتسعون، لم ترد
أو تقصر. مع أن المسافات الفاصلة بينهم حيل إليه أنها صاقت

قبلا، جلس مواجهها السات، عند أقصى الرصيف عجور أماما سلة
جبن، ما يراه حلم، المنى القديم، سالوط، همس البنت، قصر
التريجي الراسخ في مواجهة المحطة، يرى كل ما حوله من حلال
حاجز رجائي شفاف، عاش اللحظة من قبل، لكن، أين، متى؟
رأى وجه البنت الحلوة العفة، متى أين؟ الوجع يد رأسه المدسة في
شرايين قلبه، كتبه اللحم المتفصص أندا، حمون سنه تدفع الدم،
تستقبل الدم، ترتجف، ترتعش، كيف؟ حتى السيوت على الناحية
الأخرى، العربات المدفعة فوق اسملت لطريق، ماء التربة المدوم
السطي كالرم، أكوام التراب والورق على جانبي الطريق، سعف
الحيل الاجرب المطرود الساقط من العبو الشاهي، العرباب، حقول
الطرف الآخر، الاسي الذي يبعثه فيه منظر المعجوز، ضحك
البنت، ينخر موارته، في اليابان نام قواد مع بنت كاليامة، يا سلام
يا أستاذ عدلي، أي صدر، جامد كالبرتقال، ناعم أيضا كالحرير، لما
مر بأعماهن لم يعرف البنت، هل مر عمره فعلا بالعام السادس،
السابع، التاسع عشر، أبدا، أدمي غيره، شخص آخر، عمره يبدأ
بالخمس، المولود يسي لرمس الذي قصه في الرحم، هو لم يعرف
الحسين المقصية، لم تحقق كتلة اللحم الحمراء المكشدة في صدره
لواحدة كصاحبه الشعر الناعم، تصحك بليونه، تهمس، التهمت
أعصابه، ما انذي حال بين العريب الذي عاش عمره البعيد وبين
اقتارانه بأشئ، الأيام توات، ناعمة، اسبال الماء من بين الاصابع،
دائما إذا اقترب مهن أو جلس إلى واحدة مهن ترتعش أطرافه،
لا يدري إلى أي دحة يوجه نظراته، كيف يختار كلمات الحديث

إليه، يتمنى لو انتهى الموقف بسرعة، لو اختلى بواحدة منهم، لن يعرف، كيف يتصرف، ماذا يقول، حتا يفشل، أه لو اقترن العريب
 البعد بامرأة، لو تروح عند مروره بالعام الرابع، الخامس، السادس
 والعشرين، دهه الليالي، الجسد القريب، أي وقت يطله، الخروح
 من السيا الوحيدة ليلة الخميس، ظل الأنثى على الرصيف، متادته
 لتفاصيل التصرفات الصغيرة لأنثى تعيش معه أربعة وعشرين ساعة.
 الصلحكات الصغيرة، طريقة أكلها، ثعلبها في الفراش، شدها
 العطاء. أي همس تبادل والليل موقها، لحظات الصماء بينها،
 حديثها إليه عند خروجه، البيت يحتاج أرز وبصل، فات معك
 بطيخ، بعد رجوعك من المدرسة نروح تزور ييسر أبو
 الميط، امرأته وصلت من مصر، أه لو أنها تشبه الجالسة أمامه،
 متران، حطوتان، ثلاث بات، لو يمس لمسة، الخلوة طويلة الشعر،
 القصيرة الأخرى، تعرف ما يهكر فيه. يشرب همس الأنوثة،
 نعومة النفس، حتا سيفعل هذا رجل ما، كل مهن سبختصها، يحور
 فوقها رجل، إذ يرى امرأة حلوة جدا، بيضاء فاتنة، غريبة أو
 تركب قطارا عابرا. يقول، ليس مستقولا أن هذه تعتمر وتحض
 وتنزل، أندا لا يلمسها رجل، عندما قيل الحبوقة مهن إلى صاحبها
 تدو كأنها تستجديه الكلام، يصيح دهنا، أما هو هو، السات
 يتهاسن، يتغامزن، كلباتهن عنه، صرير عجلات الديزل الحاد،
 اقرب منهن، الأخيرة، دارت قريبة منه جدا، من ثيابها نفوح
 رائحة جلد الأنثى، تعجست، اختفت، عاد وجهها يطل من

الفاذة، عيناها تعرقها، تشدأها إليه، تمسكان بها، لو يبدأ عمره من
 جديد، في مكان قصي، لو بدأ الرحيل، ربما لاقى في المكان ما
 يمضي من زس، العمر لم يتلاش، حتا موحود في موصح ما، مجهول لا
 يصله بشر، مقبوة الأفعال، ربما جوف بركان خامد، أحشاء عابة
 وحشية، قمة جبل، يصل إليه، يبحث أعماق من عمره، لن يطول
 البحث، يعثر عليه، يسترد ما فات، اللحظات المقتضية، يعبر كما
 يشاء، يعرف لاحطاء التي مرت به فيسفيها غاما، راح وجاء بحوار
 العربية المتسعة، قطعت البنت حاجبها، عدا يقفن في الفناء ويقس،
 الاساد عدلي نظر إليها بطريقة عربية، الاساد. صرير العجلات،
 صفارة المخلج الذئبية تعوي، ساعة جيبه الكبيرة تمضي في اصرار
 مخيف، سير جلدي لماكسة وابور الطحين لا يعمل إلا إذا داق دم
 صبي، فؤاد لن يهي عمه قبل ساعه، ساعة، ساعتان ثلاث مصت،
 ما هذا؟ ما المعنى؟ الدريل نقطة بعيدة تسد القصبين، الهواء يحرك
 الاعشاب الكثيفة على جانبي انقصاص الحديدية، الصمت يتمدد في
 الهواء، ساد في الزوايا، حتى سمع نكتكات الساعة...

فؤاد:

لا أعرف عددهن بالضبط، لكن كل بلدة مررت بها تقريبا
 عرفت فيها امرأة، الحب في بلاد البعيدة أجل حيث لا يعرفك
 أحد وتحببلك حرية من نوع عريب، في الساحرة التي دارت بي حول
 الساحل الافريقي، كنت أعسل الصحو طوال اليوم، وأدم في

عمر ك المتقصي موحود في حير، مكان ما، وأنا أقول، بوردن، لو
بجنا جيدا، حقا نلاقي ما فت.. المهم.. هل عرفت زنجيات في
حياتك

السيد عدلي..

ظل رمادي، يمشي في شوارع فسيحة يقسمها رصيف مرصع
بججارة صغيرة، تطله أشجار نظرح غارا كالثروس الادمية، اساس
عيونهم واسعة، كلامهم همهمات، الوجوه مريجة، الطفل بعد رضع
اللبن، جبال عالية زرقاء بعيدة، لها عيون وآدان، السيد عدلي لا
يرحل عبر المكان فقط إنما يعبر الرمان، يقف عبد أي عصر
يشء، أسواق فارس المزدحة، يتأمل العريب فيها، الشواح في
كرنلاء، الرجال يشقون جباههم، يرحل متخفيا مع جيوش الغرو
البرية، مراكب تمر قنوعها الصلحة تتعد عن شواطئ صخرية،
رقصات مجنوبة، السيد عدلي، يعود إلى أزمان مقبلة، أطراف
الكون تقاربت، البيوت حاوية، صمته، لمس نظيفة، في الشوارع،
واجهات المباني، ساعات كبيرة، مبونة الأرقام والعقارب، اذ يسود
الصمب يملأ بتكتكبات التروس الصغيرة..

لحظة الغيب، انزاح العار فجأة، بدأت نسات باردة فيها
رائحة برتقال، اردحم الكورنش الهادي للترعة، أطل من الباذة
العريضة، رأى الهواء الرقراق في الفراغ، قال، البلدة كلها خرجت

الساء فوق السطح، يا سلام أستاذ عدلي لو كنت معي، يا سلام..
لكن ما علينا، عندما خلقتنا ساحل العاج، استمرت المركب تسير
ساعات بقرب الساحل، أحيانا تعيب عنه فلا يرى غير لوح لعالي
كالجبال، الصحامة والقوة، انطول والعرض كله يفقد هيمة وقوته
أمام البحر، ولما استحال النوم فوق السطح المبلى نزلت إلى الممرات
القريبة من فمرات الدرجة الثانية، رأيتها تخرج مرة أو مرتين،
اسبانية سمراء، لون أسمر فيه حرة حشفة، تسافر وحدها، رأيتها
يا أستاذ عدلي وقت لمسي، إن لم أعرفها، إن لم يلتصق لحمي
بلحمها كما يلتصق سلم السمية برصيف الميعة، فلا سلام يحوط
رحلتنا ولا أمان، التهمت غروقي، لم أتم، عندما اقتربت منها
وكلمتها، بد الساحل الافريقي من الباذة المستديرة ورجاجها
السيك، تطله المياه والملح، ذهب العصر، والغروب في البحر،
شيء خرافي، ياء.. لم أعرف في أي موضع نحن أمام افريقيا، كم
المسافة التي تفصلني عن بيتي في اسكندرية؟ م أدكر، أي الأشياء
تعمل أمي؟ أحتي، أي، بل ساءت نفسي والمركب قيل، هل هناك
عالم فعلا؟ هل توجد أرض يابسة؟ صدقي يا أستاذ عدلي لم محرج
يوميين كاملين إلا للأكل، اللوح والعرة والرحيل واحتواء أنش لا
تعرفها من قبل، ولدب أنا وهي من أجل هذه اللحظات، لن يروح
هذا من عفلي طوال عمري، يا سلام. اللحظات الحلوة تنتهي دائما،
تعرف ساعاب أقول لنفسي، ليس معقولا أن كل لحظة تبقى،
وإلا محس نصيح، ستهي، يموت كل لحظة، من يومس قلت لي أن

تشم الليل والهواء، أطل فؤاد، قال، إن الاسار مها عاش في أي
سند يوفيه أشياء، وحظه رحيله الاحيرة يكتشف أمورا كثيرة
وصغيرة يتصحب، كيف لم يدركها قبل الآن؟.

ارتعش فمه، أزاح نظارته، بصوبه ورم، سأل..
من أغلقت الحقيبة الكبيرة؟

قال فؤاد لم أنس لكن ساعدني في قفل الصغرى..

اصطر عدني إلى الجلوس فوقها حتى يتمكن من اغلاق قفلها،
بدأ يلحظ حركة فؤاد، فرحته وهو يجمع حاجياته، يسأل.. هل
نسيما القلم الجبر؟ وماكينة الخلاقة، كتب السياحة، واحلات
المصورة حدها يا أستاذ عدني. لن أحتاج إليها.. سأحصل على
غيرها.

خرجنا من باب المصنع، سأل لخير..
خلاص يا بك؟

وحرفته الكلمة، أه لو أن كلمات الحقير قيلت له هو، حاول أن
يعد البلاط المصلي في رصيف الكوريش، فؤاد بطير، يرحد دائما،
أما هو ساق ها، طاف فوق ماء انترعة الميت، جسمه نحيل، مليء
باعتظام، لم يتأمل نفسه في مرآة، فكه بارز، عيناه ضيقتان، أنفه
رفيع، حاد.. تقدم، أتت أمه أئينا خافتا، الوجع الليلي

يا بني كل لقمة

سكت.. قال..

فؤاد سيسافر .
بالسلامة يا حبيبي.

وما الذي يهمها؟ سفره لا يعني شيئا بالنسبة لها. لم تره، لم تخرج
من سلاوط عمرها، الساعة تقارب منتصف الليل، ما اسم لحظة
اشطار اللين؟ إلى أي يوم تنتمي، الاحد الراحل أو الاثنين
المقبل، ثم، ثم، ثم يجيء الأحد، اليوم أحد، غدا أحد، عمره أحد
صوبل، ثم في لحظة معينة، ثانية بعينها تتخلل الاحد الطويل، قننت
أمه، فرع، الازير الحانت، تعمص عيها، لا تمتحها ثم الاحد.
الاحد، يحلو العالم منه، تنطلق انقطارات، تجري العربات، تهاجر
السفن، تصحك النساء، يجيء أطفال، في عالم هو لا يتشمس هواءه،
برق أمامه صوب، طلقة، تحس الأرض يقدميه، أطل على أمه،
تام، استدار مطمئنا إلى الصالة، عندما رأى عطاءها يرفع ويزل
بطيئا رتيب، سيكون وحيدا في البيت الخاوي، ينصق جفناه
يتلاشى فوق سريريه، لا يدري أحد. راح، جاء.

الليل يسيل، مسود اللون، عندما صرت عجلات القطار،
فارتقت آخر العربات رصيف المحطة، انشم فؤاد، التوت العربات
فجأة مع انحاء القصبان، ضاع فؤاد، ذهب يعيش عمره، لحظة،
حقد فيها عيه، لولاه، لكن من يدري.. ربما صحك عليه طوال
المدة التي عاشها مديرا للمصنع الصغير في البلدة، كيف لف هذه
النلاد كلها وعمره لم يتجاوز الثلاثين، من أير له بالنقود؟ ربما يقع
نعم أنه رأى العالم، ولو.. فتح عيبيه عن الدنيا، لا بد أن يلحقه،

يتجاوزها، لن يقف، لن يمر عليه ليل، عبر القضبان.

الآن يطلق المطار، سهم معدني فؤاد يركب مقدمته، مطاي، معاعة، العشر، اجيرة، اسكندرية، روما، برين، باريس، لندن، مونتريال، الاسكاء، هوبولولو، توقف فوق الفلنكات الحشوية العليظة. في الضوء الضعيف نظر في ساعة جيبه الكبيرة، التروس تتكثك، اصرار عجيب، مخيف، الثانية تدرك لأخرى، نحيء الدقائق، الساعات، في كل جزء من الثانية نظوي العجلات مائة.. فوق نهر القصب المعتد في الليل، يقف ها يرجل هاك. قلب دفتر المواعيد الصغير، أصابعه مرتعشه، الضوء حافت واهن، قرب عينيه من الحروف الصغيرة الدقيقة وعلامات القطارات، بحثا عن الاكسبريس رقم « ٨٧ » وأنى وصل بالضبط في هذه اللحظة تماما، الآن.. الآن.

١٩٧٠

خراب الجسور

« .. عندما سمعت صوت أخوتي « سواب » على الطرف الآخر من التليفون تعجبت، تساءلت عما جرى، لا تحدثني هنا إطلاقاً، تشير الساعة إلى تجاوز الثالثة والنصف، بدا صوتها بعيداً عما أجهدي في التقاط لألفاظ ..

- من أي مكان تحدثين؟؟

- تحت البيت.

- بيتنا؟؟

- طبعاً.. من الاجز خانة.. باقي لك وقت طويل؟؟

- حواي أربع ساعات.. ثم أذهب إلى الكلية..

- هل جرى شيء؟؟ إرفعي صوتك..

- أنا مصرة نأكل معاً.. أتمنى الحديث إليك.. من مدة كبيرة لم

تقعد على مائدة واحدة..

- لا بد فيه حاجة.

- أبدأ والله.. نفسي أقعد وانكلم معك..

- لكن...

- ولا يهلك.. أقضي شغلك ومهما تأخرت.. أنا منتظرة..

لم أرها أثناء الحديث، لكن صوتها، تدفق الكلمات، أوحيا بالهجة التي ترحم روحها، رأيتها تقف، تحيط بوق السجدة بيدها، صوتها خميص، تشب على أطراف قدميها، تمطب عسيها إذ يرقحها. «.. نفسي أقعد واتكلم معك..» تختلف مواعيدنا، تضر أوقات لقائنا، تقل مرات أحاديثنا، أول النهار لا ألمح إلا آثار عملها المبكر في الست، نظافة الصالة، إفطاري بوق نصيبه الخضراء المبقوشة بورود حمراء، أطبل تأملها ومتسعة فروعها المتشاككة، طلق مول، بيضة مسوفة، ملح ناعم مخلوط بقليل، أكل بسرعة، لا أنظف الأطباق. «سوات» تمص الصبار عن المكتبة، نللم الملائس، تخصص يوم الثلاثاء للسهيل، ننهي كل شيء قبل وضوي، أعود متعباً، يصح النهار في رأسي، رحام عربات وعرق ومجث في أفعال القواميس عن معاني مهمة، ألوذ بعراشي الصيق في ساعة متأخرة أسمع خطواتها الخفيفة، تلامس مشاة اللوف في الطرف، نطل علي، تقف بباب حجري، عيني مفتوحتان، لا أتحرك، لا أنطق حرفاً، أحس، يهظني، أصيق بحروف خفيفة قد تتبادلها، تصغي، رما إلى وقع أنفاسي، تتراجع على مهل، مخلفة همساً من رائحتها في العرف، استعدت ملامح صوتها، «نفسى أقعد واتكلم» أي مناسبة أو حدث؟؟ في زحام حياتنا تنفذ المساسات، أجهل يوم ميلادها، أعرف إبريل لكنني لا أدري اليوم، لا تتبادل الهدايا، توقفت عن ترجمة البحث، مكاتب الصاج

مصوفة أمامي. في السقف تدور المروحة الكبيرة على مهل، أي جدوى. هذه الدورات؟؟ الحرج يتند في الفراغ، استعدت هدوء البيت، صورة أمي وأبي تطل علينا من إطار كبير، طرقت صاح المكتبة يقلمي، «.. نفسي أقعد واتكلم....»

- ٢ -

بدا الليل غطاء كثفاً من عربة وإرهاق، أرى درات الفراغ، عاط بوق عياطاً متصلاً انقطع فجأة، أي أمور شعلتي، أصاعت حديث «سوات» مني، أي واقعة بالتحديد؟؟ خروجي من المكتبة، نحس جيوي بحثاً عن دفتر تلموني، صيفي وعودتي إلى المكتبة، إحراج ما في الأدراج، عص المطاير، ثم يبرق خاطر كطلقة أفتح الحقيبة وأجده، أقلب وريقاته، أضمه في جيب قميصي، كيف نسيت ما قالته؟؟ بعد المحاصرة الثانية، وقوفنا في الطريقة أمام المدرجات، مجيء مجدي يصب رعباً صغيراً سألته، من أين؟؟ أشار إلى الخارج، عتبرت هذا عشاء يكفي «سوات» في عينيها وحشة انتظار، تقف أمام المطبخ، تمسك خصرها بيديها.

- قم واغسل وجهك.. أعددت ما يسرك.. ولم أس السلطة الخضراء. يتصف الليل بعد قبيل، أقوم ثقل حقوقي، لا أدري ما الذي يحرك «سوات» بحمة هكذا؟؟ ربما تحيي مفاحة عصمت شفي، استعدت هرهرات الأوتوبيس، تعلق بعينين واسعتين تنظرانني من فوق أحد مناعد الدرجة الأولى، نافذتان شافتان، بيرقان يرفقان على عالم به راحة وأمان ووعود عامصة بانوصول،

انحدت موهباً مناسباً بمكني الإحلال عليها، أحياناً تحولها صاحبها إلى الطريق، كأنها تعرفني، وتعرف «سنوات»، من أين جئت، وإلى أين؟؟ أرددت فرأى، في أسياال انطرات سل أسطوري، أعمار حصاره بعيدة، تفتت العرول وراءها، أقف على سرها، أفك رمورها، ثابت نزولها، اعتذار خفي بكل كياني، الحاضرة بدأت فعلاً، هل سأراها ثانية في أي مكان، متى، تقول «سنوات»:

- أنظر هذه الحلة الانجليزية.. منذ شهر قررت أن أعد لك هذه الأطباق.. لن نأكلها مرة واحدة طبعاً.. لي سأعدها لك صفاً صفاً وكلها سمح مصروف البيت.. مد يدك.. تذوق.

نضمت نصب أصعب كفتة.

- الطبق كأنه تجسد خارج لصفحة..

- ولكن..

مدت يدها، أصعبها يلامس شفتي، حركة تفيض أنوثة ورقة، عاودني رقاء العيس، ورقة حقيقة، بعمية، راودني يقين أبي سأراها في الحلم..

- لا تخشى المصاريف.. تكاليف الطعام اليوم بدعوة مني.. يا أحي العظيم.. عندي بقية نقودي من جمعية قبضتها منذ شهر.. أنت مدعو الليلة إلى العشاء..

يمدق من عيسها حنو عظيم علي، الخطوة الطبيعية أن أقوم، أحصتها أنفها، ثقل بموشى، عواطف لا سبراً عنها بالفتلات، حتى

مرات سمرى النادرة أكتفي بها علامة اليد، لا يلوح بالأيدي، يعقد اللعب في فمي، يبدو الطعام شيئاً، لكن.. هل أنساءل عن إمكانية بقاء الطعام إلى العد، تبدو مستعدة حديث طويل بعد العشاء، «نفسى أقعد وأتكلم..» أود اللجوء إلى مراثي في لحظة، قلل حطوها إلى الداخل ناديت.

- سنوات..

التفتت...

- ٣ -

عنها.

لم يحى بطري، ولست عطشاً، عند نهاية الكوبري تندفق المركبات، يمكنني القفز من العربة قبل المحطة، أستدير، ألتفتها، أتأكد مما رأيته، يبدو الليل، أمواجه تضي في وثبات لينة، اسهار لم يتصف بعد، لم تقص دقيقتان، لا تكفيان للمور إلى الطرف الآخر، إذن تحركا في هذا الاتجاه، بالتأكيد لا تتأبط ذراعه، إنما تمشي بجواره غاماً، يلوح بيده، هي صامدة لكن ملامح وجهها تصل الحديث بينها، أدركته تميزات وجهها في رؤيتي العابرة، بخطى تقرب من الجري، حاولت دخول الحديقة.. صدني حارس أسمر اللون

- ممنوع.. ممنوع يا أستاذ..

لم أجأله، لا بد أنها تحي إلى الطريق المأذون لسل، ثلاث

درجات بها تقترب الارض من النيل، مددت اسصر، بلاط مربع كبير، التراب مخلوط بزهور جافة تساقطت، رائحة نبت مهروس، عوبها أصوات العربات. الطريق قريب، بكى ثمة هدوء مزاج في الفراغ، لا أحد هنا، كيف.. في هذه الساعة من النهار، حتى العشاق نأوا، وباعة عقود الفل، والترص، والزهور، واللب، ومتكدرى الحفاط المتصمين بهداة النيل، تلفت، يمتد الكويري كقلعه ضخمة من الصلب والاسفلت، دعائه تطعن بطن النهر، تتحرك العربات بلا صوت، يدركها، كأن حاجرأ غير مرئي يجمد الاصوات، يحول المنطوق إلى صامت. أين ذهبا، تأخذني رغبة حادة لأراها الآن، أمد لها بدأ، أتعرف إليه، أطلب منها أن تحب، هل تحبه هل تحبه فعلا؟ أسأله، هل يحبها، أمسك أيديها، أميل، أقبلها، ألتحي بها ركاً. أصمي إلى كل ما تحبته، «.. عسي أقعد وأنكلم معك..» أخفف عنها، أزيح ثقلا تتوء به، ربما دعوتها إلى عصر فاكهة في الكاريو القريب، ثمشي ثلاثاً، ياه.. لم يخرج أبدأ للرهة مند وقت بعيد، لم يدخل سيبا، لم نر أحد أقاربنا معاً، لا أعرف أسماء صاحباتها، رأيت بعضهن في البيت، بحيط صافحتهن، تحهن أصدقائي، زملائي في قسم اسراست اعليا، لا أسألهن عن الاماكن التي أتردد عليها، أبدأ.. سأصارحها الآن بضرورة اقترابنا، لن أصمي إلى الكلفة لكن الطريق موحش، الرحام قريب والحلاء هنا عجيب. عيون النيل الخفية تنظرني، ريح خفيفة تحرك أوراق الشجر، ربما رأيت اسطورية العينين الآن، سأقدم منها. أحدثها عن

«سوات»، سحت عنها معاً، فوق النهر يحصي مركب شراعي متنهلاً، لم ألمح قوقه إنساناً، لا أدري أين ذهبت سنوات. أين صاحبتها، أين تقيم زرقاء العينين، أين تخفي أسرارها، يهبط قلبي عقدار قصة يد، ربما تركب قطاراً يحملها إلى مدينة أخرى، ربما سافرت إلى بلدة بعيدة لن أذهب إليها قط، تحدث عرياء وتناجي غرباء، ربما.. ربما رحلت رحيلاً أبدياً، ثلاثة أيام مضت على رؤيتها، ما يمكن وقوعه خلالها كثير، أما سوات، أين وكاسي أمهي، لكم أود الاصغاء إلى ما تكلمه الآن، ألتقي في رؤيتها، أدركني عجز واه في أسي.

«سنوات.. سنوات..»

ورأتها تقف بالباب، أنبتت اصطخاكي.

«تعالى..»

أومأت مرحة، جلست عند طرف السرير، تيسر راحتيها، تضمها، تدسها بين ساقيها..

«سأعطلك..»

«أبدأ..»

«عموماً قررت الليلة ألا أنام حتى أراك..»

«خيراً..»

بدلال هزت رأسها..

«أبدأ.. أراك..»

أطرفت، على مهل تقول:

- وأنتكم معك..

تأهب للأصاء لا تود النوح به. في هذه اللحظة أدركت أنني
سيت تماماً ملامح رقاء العيسير، احتلظت بالرحام، وأشجار
حديقة الاورمان، والحصرة الخصة، نكبي لم أعتقد خلاصة المعاني،
أين ذهبا. دن؟ كيف ضاعا مي؟ رأيت ألا أفاتحها في الأمر الليلة،
ربما اعتد الحديث وتشعب الموضوع، لست متأهلاً للاستفسار
والمناقشة، جاءت سسها، هل يعني أثناء بحثي عنها، مد أيام
أحمت صبيها، حتى الآن لم يأكل معاً، أول أمس، قالت إن تدع
يوم الجمعة بعلت، ستعلق الباب، لن تسمح لي بالخروج.

- هل أعطتك؟؟

- أبدأ أبدأ.

نعص شفتها السفلى، بحركة خاطفة تتربع فون السرير، نظراتها
جانبية صاحكة، لم أعتد هذا الحجر الاشوي. عندما أنظر إلى
صورها أثناء الصعولة. لا أتعرف فيها على مقدمات هذه الاثني التي
نميص حويبه. تستعد للحديث

- تعرف؟

لحظة نطق الكلمة، بلا قصد، نظرت ساعة معصمي، تمضي
العقارب إلى الثدية صاحاً، قامت..

واصح أنني أعطتك..

يريق الحاسة حبا في عيسها، الالفاظ صرعت عند طرف لساها،
تدلت يداها، قطعت حبلاً تصل الاشرعة، مزقت وصلاً كاد يتم..

- أبدأ.. إنني أسمعك..

عياً تلتئم الصاف، أعطت وداً رائقاً في عننها..

- أعرف مشاغلك.. لن أعطك..

في صوتها حسة من أوشك على بلوع المراسي، ثم اكتشف وعورة
التعاق، تنوءات الصخر الحجري، فملاً سألتي راحتي بمفردي
فيلك، أستدعي حوادث يومي، أرقب دولاب الكتب في العتمة،
قس خروجها صحت.

- يه.. كدت أسي. حل لي أنني رأيتك فون كوري قصر

الليل عند الظهر

أنا؟؟ أبدأ.. أنا لم أفارق عملي اليوم كله.. يمكنك أن..

تبدو فرحة قليلاً بتلميحي، صدور اهتمام من جانبي، ربما استمادت
حاستها، تعود إلى الجلوس، تحدثني عما تكتم، أبدأ، الصداً يخلق
البريق، تضاءت، أغدقت حوا على صوتي..

- أبدأ يا سنوات.. يكفي قولك هذا.. حيل لي فقط.

لا أدري كم نمت؟ في هدأة الليل إذ يدركني قلق، أعود جيباً
أتنس جذران الرحم، يثقلني همود الليل، بينما يعدو النهار في
رأسي، أرى ما لم توقف عنده في يومي الراحل، أستعيد ملامح
عجوز يمشي مرجف الخطى، يوشك أن يقع، بعد أيام أدركت

هدفه، فتاة سمراء صغيرة ترتدي ربي المذارس الثانوية. تطل من حقيبتها كراسات ومسطرة وعلبة ألوان مائية، يقترب حتى يجاذبها، يبتعد ليعود من جديد لحظة وصول أتوبيس، تنتشر الحركة بين الواقفين، يزداد قرناً منها، اليوم سمعته بلقي تحبة مقتضة ححولة «صباح الخير». أسرع مخنياً، ينظر الفتاة إلى الامام، لا يعيها ما يدور حولها، الآن.. تطل ررقاء العيسين، السمات ضائعة، لكن الجوهر لم يقتقد، تنظري من إطار باهت قديم، لحي غير مطوق يأتي من جحر بعيدة، بغز من حصار قديمة لم يحل، أضعتها بسهولة، في المكسب أنفلي وحودها، حي، قام جلال رميني، اقترت مي، شكا إلى ألي في كليته، قلت اذهب إلى الطبيب لعمل أشعة، وددت لو انتعد عني، عدت باحثاً عن معنى العيسين، أمسك بيدي، لامت جسمه الايسر، صعب أصابعي، هز رأسه، ليست هي السب، قلت ماذا إذن؟ مال إلى هامساً، قال إنه منذ ليلتين فتح النافذة، لا عيرات أمامه، يطل على خلل وسيع، أصر أن ينام مع امرأته في ليلة الصيف الحارة هذه، تند مجوارها حوالي العاشرة والرابع بالصبط، يذكر الوقت غاماً، التحا، التصقا، احتكا، مثيرات ومقدمات، كم استغرق؟ خمس ساعات كاملة، حتى كادت بحن، وعندما صرحت من اللدة كان العرق يبلله غاماً، أثناء الحديث صوته يتمهل، يبدو بطيئاً ينتلغ لعابه، أصعبت، يلقي متعة في قص التماسين، قال: بالتأكيد سمع برد هي السب، إذ حدث في حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد استلقائه هامداً، أن هبت رقائق هواء

بذلت كالابر الرفيعة إلى كليته. قلت يستحسن الاسراع بالعلاج. البرد في هذه المناطق وعمر وخطر، لا بد من الذهاب إلى طبيب، قام بعد ساعات عاد إلى هامساً، خمس ساعات، أي والله حتى كدت أجن، راودني خنن إلى أسرة وأطفال، أنشئ في متناول اليد. لم أمال «سنوات» عن أفكارها حول الزواج، الرجل الذي تنوي قضاء بفيه عمرها معه، صورته في ذهنها، ربما أحد رملاتها، لا أعرف واحداً منهم، لم أرها في العمل مرة، غداً سأسألها عنهم، عن ممارفها. غداً بعد عودتي سأوقظها لو وجدت نائمة، مجلس معاً، تتبادل الضحكات، أمس كنت قاسماً، غلبت القلب، عندها ما تود قوله، لم أصع، الآن بترامى من بعد صوت قطار يعبر الخط الحديدى القريب، بدا لصوب مطاطاً كأنه لن يسهي، في أويقات أرقى يشير في هذا الصوت حرنأ، وذكرى أيام غائبات، أرهفت السمع. باب حجرة «سنوات» يفتح، التقط صريره الصليل في نهاية الطرقة، تحه إلى اندوره. لم تصي المصباح، هل أقوم؟ فعر أمامها فتاة بعد فتح بابي؟ دعاية من دعانات الرمس البعيد، في ابداه سبدي ابرعجاً لكنها تصحك، تعاق، صوب ورق بمرق، ماذا تفعل «سنوات»؟ لم يعلق باب «بدورة»، واصح أنها تقف أمامه، أوراق تمرق قطعاً صغيره، يبطه صوت التمريق إذ يرداد سمك الورق يصعب تقطيعه، تشد «السيمون» تندق المياه بسرعة عالية، اتخذت من طشيشها سياراً لزولي من السرير، أصفيت من خلف باب حجرتي، أي أمر يحدث؟ يد طويلة لاظهار حشمت

قلي، تنكي «سوات» بصوت عال، شحها بصلي واصحاً، أرى جسمها يهتز، تدرق دمعاً، حتى رأيته تنكي؟؟ لحظة ادخال «والدنا» عرفة الدرس، اندفعها الطاجيء وبراحها المتنازع، أيدي الحرم تمتد إليها، تحوشها، تمسها. «سوات» الآن تنكي، جاءني صغير الفطار من بعيد حيطاً مسلحاً مسمباً، يذوب في الليل، عندما انتهى أحدث خواء كوبي وحشياً صارماً ينقلني، لم أدر هل بقيت في الصلاة؟ هل عادت إلى غرفتها، هل تقف مكابها؟ تعلم ما تثار من قصاصات لتعاود ابادتها، هل ارتابت في قبامي فأحرست نوحها، هل سمعت فعلاً حركة قدميها وطشيش المياه، عدأ.. أستمر وأعرف.

- ٦ -

طلعت السلم بسرعة، لن أذهب إلى الجامعة، ستخرج مقعدي إلى الشرفة، لن تضايق الشمس، تواجه الآن جانب الست الآخر، تدثرنا ظلال حانية، نأكل معاً، نتحدث، نتحدث، «مسي أقعد واتكم معك»، لا أسى هرة صوتها عبر لاسلاك، أصعي إليها، أقول وكأن حديثي يبدو عابراً. حيل لي في السلة الماصية أبك فلقت، وأبك تبكين..

- أهلاً.. أي مفاجأة..

افتقد رائحة البيت في مثل هذا الوقت، غير الاستقرار، رائحة الاثاث والعسيل وطعام طهي فعلاً، حملت حقيقتي عني. لا تتحرك بخفة، اقتعدت بهجتها، عندما نبدأ حديث سميد

الوحشة. باب حجرتها مفتوح

- الله. عندك صيوف؟

- سهام صاحقتي.. تعال اعرفك بها.. تعال..

قامت سهم، تبدو خجلة.

أخي يا سهام..

فأحائي افتقاد ررقاء العينين، كريستالية اسطرات، خطات في مركبة عامة، عمر طويل من علاقة لم تتصل، طاقة قدر في مياه مسحة، ترق لحظة، لا يراها لا صافي القلب. فوق السرير مجموعة من صوري، تعرضها سوات على صاحبها..

- لا حديث لسوات معنا إلا عنك. عرفناك قبل أن تراك..

- يا.. سنوات تبالغ..

تراجعت برأسها إلى الوراء، تقول بجرأة نحو آثار الخجل الأولى

- أبدأ.. يا سلام..

هل طالعتني عيناها فعلاً؟ هل رأيت «سوات» فوق كوبري قصر النيل «تشب على أطراف أصابعها، تعاودها سعادة، تود لو بقيت معها، عدت لي الصلاة، تمد رائحة البيص المقلت قالت إنها لم تعرفني نيتي في العودة مبكراً، لم أقل أنني رغبت في الحديث معها، أسألتها ونجبت، قالت إنها لم تشر بسطرمة لكنها تظن البيص

والجنة كافيي عادت إلى سهام، سمعتها تقول أنه يرهق نفسه كثيراً، يخرج من مكتب الرحمة إلى الكلية، يواطى على المحاضرات، قالت أنه لم يبدأ حتى يحصل على لكتوراه بعد الماجستير، قالت بصوت حميص، أوقمت مصع اللقيت، ر أحاما مثابر، قالت سهام كلاماً لم أتبينه، ضحكك سنوات، عاودني الصوت حميصاً، توالى دقات هاون نحاس من الطابق العلوي، خطر لي القيام والرعيق مطالباً بالكعب، الوقت عصر، العص بعفو من عناء. سيبدو هذا منفراً، عادت سنوات تضحك هدوء ضحكاً رائقاً تذكرت بكاءها ليلة أسس. بدا قضاء العصر في ليست مقصداً، نظرت ساعتى، يمكنى لحاق المحاضرات.

- ٧ -

يبدو الحديث مصحوباً بصدى، تمشال الرؤيا، تقول سنوات أنها استدعوي ليلة ظهور السنحة، سررتني فستاناً لامعاً، أسس بحلى للآلء صغيرة، دقيق كإيماء رأس، تتأبط ذراعي، فدخل معاً، ذهب بعد الغناء إلى مسرح أو سيماء، سكنت لحظة صتيلة كتب إبرة، في برين الهجة ألح الأسى، في تدفق الألفاظ أرى تنثر المعنى واختباها، شيء ما لا أقدر الإمساك به، يدفع مرارة مقطرة إلى ركي عسها، كأنها أهيت مند قليل ثم كتعت ما حاق بها، فجاء سألتني، ألا تفكر في السفر؟؟ قلت، إلى أين؟؟ قالت إلى بلاد الدنيا، رأيت رحيلنا معاً، ركوبا سفينة لبرى وتعرف بهم، قيم العلاقات ومكتب العاوين، تناقش الركاب في انقطارات، إذ

يحاضرنا البرد في غرفتنا الصغيرة، بفتدق قديم، نستعيد طفولتنا، ملامح أيامنا الصائغة، نذكر حديث والدنا عن استانول، رحل إليها في شبابه أثناء عمله مدرساً، سنوات تذكر برين عينييه عند حديثه عما راه، صغاف الوسور، ماذن استانول، حوارها الصقة، لككة الأدار العرية، قاست، سدا باستانول، ما رأيك.؟؟ أومات موافقاً، رفعت ذراعاً معدودة إلى أعلى، بندخر المال، لن أصابك، ابتمت، لو رأيتك معهما بقناة ما قلن أقف حائلا أمامك، يمكنك تجاهل وجودي تماماً، وكأنني لا أشعل حتى جزء من الفراغ.. أبدأ

- ٨ -

يرسل المصباح ضوءاً واهماً كالوحدة، البيوت مصنونة في سواد الليل، أربعة رجال يقفون أمام البيت، أبطأت خطاي، طعلة صغيرة تلمحي؛ تصرخ..
- أبلة سوات.. أبلة سوات..

أحاطت ساقي بيديها، إينة عم محمد المواب، تقدموا، رأيت الشارع، بلاطه المضلع، الهواء في الفراغ، رائحة غسيل مشور، رأيت أحد الرجال مرتدياً حلة زرقاء بصفين من الرراير النحاسية، رأيت استانول، الصور القديمة، في أحداها أحيط سوات بذراعي ترتدي عقلاً عربياً، أشهر مسدساً بينما يبدو وجهها الضمل رائقاً، رأيت الرحيل، الاطباق منكفاء فوق طعام بارد بينما يهبط داخلي ثقل من رهاص..

- أبله سنوات .. أبله سنوات ..

- بقيت هناك منقطعة أربع ساعات .. لو نعرف تلفونك لاتصلنا بك .. الاسعاف لم تنقلها ..

- أخذوا عم محمد البواب لسماح شهادته .. هو الذي رأى كل شيء ..

- كان يقف لحظة ..

تفصل الطفلة عني ، لا أقدر على النظر الى أعلى ، إلى شرفتنا ، رأيت شرفات السلام لأمعة ، موضع العيسين تجويف خالي من الررفة ، سمحت الصملة ركناً ، مثلي تماماً ، لم تر لحظة مجيئها الى العالم ، ولا لحظة رحيلها عنه ، لا أتيس ملامح الطفلة ، لا أدرك أصوات المتحدثين ، يدميني الشبح الوعر ..

- آه آه سنوات أبله سنوات ..

١٩٧٣

ناطق الزمان

مفتتح

في آخر الزمان ، يقوم المهدي المنتظر ، ناطق الزمان ، يجيء الى الدنيا بعد أن يبلغ أمرها حداً لا حد بعده ، بعده ، أنه يعيش فيها ، لكنه حمي لا يبين ، وفي يوم معين ، لحظة بعينها ، قيل إنها ساعة شروق الشمس ، يظهر ، فيراه أولاً الصعرة ثم يمعم . عندئذ ، يقوم جده من كر سكاك ، من فجاج الأرض ودروبها يجيئون ، آمنين ، موحدن ، فيملكك الدنيا شرقها وغربها ، كما ملكها سليمان الحكيم ، وذو القربى ، قال الثقة إنه لو ظهر ثم احتفى ، وبقي في عمر الدنيا يوم واحد ، لأطاع الله عمر ذلك اليوم حتى يبعث رب العالمين ، حينئذ تقضى آخر أيام الدنيا عدلاً وسلاماً ، من بعد أن ملئت ظليماً وجوراً .

« جمع الكلمات »

هدأ القطار سرعته ، ارتلق سامي من فوق السطح الى فراع ما بين العربات ، قفز الى الأرض ، الهواء بارد ، يقول أن الشتاء بانتظاره ، باع كل شيء من أجله ثم فارقة . سامي تبار هجره الضوء ،

في الميدان حركة ليالي الشتاء، أصدقاء يفرقون، جنود عابرون،
مواصلات تشح فتقطع أوصال المدينة. عليه أن ينتظر، يبحث عن
مولاه من جديد، سيجمع الحروف يضاهي الأرقام، يمش ضففي
البيل دبره، وحماً يلائمه كم قابله، سامي الآن وحيد حتى مرارته.
بلا تصافة شخصية، برع كل أوراقه. ربما أذاقوه العربة، سحوه،
وأن محله لسقده؟ أين ناطق الرمال، من يجمع كباته لوصفه
به؟ سيحتمي في الرحم، نصي إلى أصرحة الاوصاء، بعسه يسأ
الناس عنه، بارهاف أدنيه، بالذكوى التسمية، يرور أمه، يرقبها،
يثر القربل الحريس فوق قبرها، يطلب منها أن تساعده، يسألها
كيف تحلى له؟ رافقه، أضع ما أصاع من أجبه، ثم غادر.. كيف؟

أول الرؤية..

سامي لم يفه حرفاً، بالدمع يكاد ييكفي، عاش اللحظة الأولى،
رعدة الميلاد، خروجه اليومي الصاحي، السماء زجاجية اللون،
سور باب النصر، عرست ثقل الرمال، رآه قادماً من ناحية جبل
الدراسة، قرص الشمس يلمس حافة الصحراء، كل شيء أعده،
ليس صدفة أبداً رآه في حجاب نهار الأولى، في اندفاق الدس من
إناء إلى إناء، سامي يعرفه، هذا ما قرأ عنه. قال مقرباً منه:
- أنت أنت..

في الطريق يحطو الصباح طفلاً واسع العينين.. رقائق هواء..

- لن نعرفي يا سامي ما دمت عرفتي فلا يحدث هذا كثيراً
في الرمال.

اتركي في غرفك. أمص أنت إلى رزقك فأنا لست معدوداً
بكار.

يبدأ ميلاد سامي، فكر في اللهجة التي يوجه بها صاحب
التجر، هل يتحدث إليه بأفمة وكرياء؟ أو بلا مبالاة؟ كتم ما في
نفسه، لم يبح، ستجني لحظة معينة، يدرك فيها صاحب التجر،
ورملاؤه السعوس، والرائث ما أدركه هو، يعلمون أن سامي أوان
من اتع حطى ناطق الزمان. في المساء عبر كويري الجلاء، تعاوده
لحظات قديمه، تدفق دماً ساخناً طرياً، عودته إلى البيت، يعرف أن
أه بانتظاره، أبوه يصل بعد قليل، حروجه لمقابلة هدى، حركة
بدها، لون نظرتها، رقة وجهها، مشروعاتها المشتركة، تحيلها شكن
البيت الصغير أنتظر. وقوه أمام أهدايا، يتمنى لو اشترى لها،
هذا القماش، تلك الحقة، يصرخ الخصى، يقابلها، تصحك فرحة،
اه من حيرته في ليل المدينة، السوت قصان سحن، أين يذهب؟؟
يود لو يوقف أي رجل مار، فقط يتحدث إليه، فترة ما بين السابعة
عشر وعامه العشرين، بسرعة مرت، لم يعيشها، أين راحت؟؟
كيف؟؟ كأنها ستمود من جديد، قيص الآمال، اعداد المشاريع
لحظات ما قبل النوم، الآن.. يعرف أن أيامه العطش كأرض جفاها
اسبل، متبعض من جديد، بكل ما راح، ما ضاع، صوامع العلال
انفارقة المحورة قتلى من جديد يشم رائحة التين في الطريق

- طالت رحلتي .. عذاباتي طوال السنين؟؟

الليلة، يتم سامي عامه الثلاثين، من منتصف الليلة يتحدث
العم، أيام رمضان الأخيرة تقول أمه. ما موصوه لن يتكرر، أيام
شبابه أيضاً دأب، قل نطق الرمان أنه سيزل إلى العالم، حفي،
واضح، طاهر، باطن، سيرفه المغربون، بصيته يرفعون، الأمر في
هذا الرمان صعب، عسير، منذ مئات السنين انتقل بين القرى
وأسواق المدن، عبر جبال أشلوح البعيدة، الطرق الصحراوية المؤدية
إلى الواحات، بعضها لا وجود له الآن، لم يطلب منه أحد تصاريح
سفر، وإذا استند المصول بحلوق فهو طواف لا يهدأ له قرار ..

- أما الآن .. فالخذار .. الخذار .. كثر الأعداء ..

سامي الان يشم رائحة أمه، عودته كل ظهيرة بأقراص الطعمية
الساخنة، أمه تقعد أمام باب الحجرة، ترتق قطع القماش القديم
تصله بعضها، بتأن تحاول ادخال الخيط في ثقب الإبرة، سامي
يشد ثوبها، تقول اسكت يا سامي، اسكت يا حبيبي، قال ناطق
الرمان، أن الأعداء لا يتهدون، منذ أن طاردوه رمس الخلاء،
الأمويين، ثم العباسيين. اضطر إلى الاستار في بلدة صغيرة، رقيقة
كقصيدة شعر، نائبة في الشام، اسمها سمسة، منها انطلق دعائه، عبر
أن الخلاف دب بين الأوسع ظهر أكثر من واحد في المغرب، في
المهد، في مصر والسودان، ادعى كل منهم أنه هو ناطق الزمان،
لكنهم خابوا جميعاً، بقي هو مستتراً، سامي يحضر إلى مولاه، يسمع
اقتراب الليل، يرى أعوامه الثلاثين، رمان رم أبوه شفته، فرح

الصيق المصوف، بحرى النيل في قريته النائية، يمشي مع أبيه ..
سامي لم يزر بلدته منذ ستين، بعد اليوم، لن تعصيه كلمة «لو» في
مبدان التحرير، أمام محل بيع الألبان، تنصدره رجاجة لن
كبيرة، آلة عصير ماعو، مناضد، همس شفاء، قاوم نفسه، أه لو
صرح، يطلع فوق برج القاهرة، يدور هلوكتتر، يشق فراغ ما بين
الأهرامات، يعبر الكباري الصغيرة المصنوعة من أحشاب الحبل،
يطوي مدقات الجبال. يزعى .. ابشروا ..

ظهر قائم الرمان .. ناطق الرمان .. جاء العدل والسلام ..

يطل من عينيه أمان، أه يا أب اليتيم، يا عائل الشريد، يا
مجي العرقى، نطق فارتجف سامي:
- أحسنت .. لكل لحظة أوانها احتوم ..

يسها صممت شفاف نقي كماء الورد، أصوات العصر نجىء من
الحارة، يسمها سامي أيام عطلته بفرده، ثرثرة النساء، نداءات
الماعة، يتأمل ايفاع أصواتهم وتنوعها، «يا حسن يا حلو قوي»
«اصلح بواير الجار»، «الوداع يا موحية»، «أوان بعيدة تسقط،
موقد يشتعل، صمارة نائية، مبهمة المصدر، رفع عينيه، وجه ناطق
الرمان، لا يمكن من حلاله تحديد العمر، رما قال ناظر، انه مليح
شاب، رما أكد بحرب حكم، اب ملامح شح تحور اثنين، محير.
مق مولده؟؟ هل لثله أم عانت آلام الخاص؟؟

يا ليمى قسك

طفشت في الحارة، تشد ثياب النساء، تنيل التراب فوق شعره
معص نفسها، تقول للرجال العابرين.. راح أبو سامي.. راح من
يعولنا، راح رجلي.. من يعولنا؟؟ رجلي؟؟ ألفاظ توجع سامي،
يزل ثقل في دمه، تعريشة الأسرة انكسرت، الدفة التوت، الرنان
هوى في قاع اليه، الحجاج انسل هارباً من تجاوزيف العظام، طوال
شهور تلت، أمه تلقي أحزنها فوق أمور صغيرة وقعت، لو أنه لم
يذهب إلى أقاربه في مصر القديمة لعاش، لو أنه رأى أخته بطلا،
راح محسوراً لم يرها، لو أحد إجازة، لم يعرف الراحة أبداً، لكن ما
سنة هذا إلى ما رآه ناطق الزمان؟؟ عذابات الكون منذ أن كانت
الأرض صحراً ملتهماً، ثم نمت وحشي حال من الإنسان، الآن
الليلة، تولد الآمال، تمنى الوديان حصرة، تظفر السباء في أفواه
المحتضرين عطشاً.

-إذن أنت تعرف اليوم الذي رحل فيه أبي.

ليس هذا فقط، إنما يعرف رعدة قلبه عندما عرف هدى، لحظة
مجيئها إلى المتجر تشتري فستاناً بسيطاً، تلاقي عيونهم، إدراكه مرافاً
الحسين، مولاه يعرف طوائفه الليلي، هدى موجودة في كل فتاة
عابرة، تطل عليه من مكان حبي، معه دائماً، يتخذ في جوف الليل
قراراً، أن يمشي من الحسين حتى كويري الجلاء، يقف عند الحد
العاصم بين محاطقي القاهرة والجيزة، يتأمل أصواء بعوامات

بجحاح ولده، قال أنه سبغ ما أمسه وما وراءه، سحبل حقائق
المسافرين، يقشر عيدون النصب في عازن محلات العصور، المهم أن
يتم سامي تعلمه، يعرف ناس بالوحشة، أصابعه تسك طرف ردايه
الأبيض، في أي عصر سح، من أي اسده ومشاجها أن سامي ولده
دخل الجامعة، بالتحديد كلية الطب. ربما جاء تعيينه طبيباً مستشفى
السدر، يطي الحاح سلامة أعى مشايخ اسلدة ركوبه، يمضي إلى
المستشفى، الثقة بنوه، الطبيب هو سامي بن هارون القط، أي ولده
هارون عرف يربي، يقول سامي

- يمكنني أن أعمل لأساعدك.. وفي نفس الوقت..

يصبح أبوه: أبداً، أبداً،

همس سامي وعيناه محتويان ناطق الرمان:

- أيضاً ذهبت لتحقيق الأميات.. لن يتحسر انسان..

يقترّب العروب، لا يطبق سامي النقاء في حجرته، كل ما يراه،
يتدفق إليه حزين، يفصله عن العالم بحر صعب العبور، مولاه يتم
مأدبة تنأى بالوحشة، أصابعه تسك طرف ردايه الأبيض، في أي
عصر سح، من أي فاش هو؟؟ قال أن عربته لن تظول، من يرى
أكثر مما رآه هدى في مصر منذ أربعمئة وسبعين عاماً، قصص عليه
المس، ظوه من العربان المصدين رموه في سحر الجبل، قصي فيه
مائة عام واردة تسعاً، تعاقب عليه أجيال من الحراس، استلم
للقضاء، أليست عذابات بعض ما يجري في العالم؟؟ كاد سامي
يسكي، يسمع نواح أمه..

الخافقة، دوامات التراب الصغيرة والورق، يلفظ اسمها قرب الفجر
نصوت عال.. هدى..

- ما دمت أتعلمك يا ضبا عبي يا مولاي.. فلن أقطع الأمل في
رؤيتها.

هز الإمام رأسه، ضوء الطرقات هامس، تنذر السماء هلاك
مجهول، رآها الإمام مد أفق سنة، ترى، ماذا حال بعقول أهل
الأرمان البعيدة وهم يتطلعون إلى السماء داتها، ما أثارته كل لحظة
من أحلام، الهمس المتبادل ناطق الزمان عرف الغروب في قرى
الهدى العميرة، راه في الإحساء في عهد بين ربوع الشام والأضول
بلاد القفقاس، بحر الزنج والبحر المحيط تجاورا شوارع الصحيح،
خرجا إلى الخط الحديدي المار قرب الحقول، المطار الصغير،
الأبواب الرقاع على جاني لمر، تمتد رائحة الليل، أنفاس الررع،
ابوقود المتساقط بين القصور، الموى يتطلع يكشف حجب استقل،
يرى مدناً أخرى مشورة في أركان العالم، جزر صغيرة يسكنها
الأعراب والصيدون..

البحث وراء التعابير

الراكبية لا يأخذون معهم أحداً، لكن ريس هذا المركب عبده
رأها أوسع لها مكاناً رحباً، قال لناطق الرمان، أنه انتظره طويلاً،

عند المنحنيات الحادة في المجرى، في جري الموج، رح بيخي، لصوته
رائحة أرض الشراقي، المنشوقة إلى الماء، يذكر امرأة بعيدة وعبالا
صغاراً، يذكر مداف النسا والبيتي، الحليب الصاحي، رائحة حبر
الطهيبة، رحلته تستغرق شهراً كاملاً، ينقل الحبوب، الغلال، أواني
البحار، سامي يوقب حطو الليل، الليل لا ينزل من السماء، إغا
يطلع من الليل، من الصفتين، من هسيس الحشرات، ذرات اعمار
التي تنيرها أقدام المارة فوق الطرق الريفية، يترامى إليه تصفيق
غمام، ربما مروح في قرية نائية، تدوم الريح فتطوي الزغاريد
وطلقات الرصاص، ناطق الزمان يهوص في طبقات الطلام بعينه،
أيما ذهب يدركه البعض، يجهله آخرون، أو يتجاهلون، ربما أدركهم
الأعداء المترصدون، في كل مكان ينتشرون، قال الإمام أنهم في
البحار الكبيرة، فوق شوح الجبال، في باطحات السحاب البعيدة، في
الأثار القديمة، في المصارف، قواديس السواقي، تجاوبف الطننور،
سفن آلات القطارات، حول أدرج السافورات، في أروقه
المستعفيات، في الاتساعات الصفراء، ارتعاشات الجعوى، لو عرفوه
لاقصوا بحقد، غل عمره آلاف السنين، يتوارثونه، سامي يضح في
رهبة الليل، يصني إلى نبض العالم، لا يعرف كم انقضى عليه تايماً
بؤلاه، شهور، سنين؟ توقف عمره عند الثلاثين، يبدأ من جديد
أعوامه البعيدة المنقضية بسهولة قاسية لا تصدق، كأنها سنين غيره،
من يدري، ربما لو مد البصر عبر الليل، يلتقي طعولته، شبابه، حارة
البيروقدار، وقتته يبيع الثياب، مسومة لزبائن، تعبر النهار حارح

ضربة الرجاج، ليس معقولاً أن ما انتفض ضاع تماماً.. لا بد من وجوده في مكان، زمن ما ..

يرتمش صوت الشيخ العجور، ناظر مدرسة ابتدائية، قال أنه رأى تباشير الامل في انطلاق النهر كل عام، في اكتمال القمر بدرًا، قال ناطق الزمن أنه لا يجيء بالخوارق، لكن شيئاً فشيئاً يدرك العالم الحقيقة فيقوم قومة رجل واحد، سامي يقف عند آخر بيوت القرية، حافة الصحراء، يدوس بقدم في الخضرة، وقدم في الرمال، في سكون الليل يحكي الشيخ عن رحال ماتوا بعد انتظار الامام طوال حياتهم، كثيرون حرقوا يحشون عنه ولم يرجعوا، توهج في السماء نجم وحيد، ليست المرة الاولى التي يجيء فيها الى هناك، منذ مائه عام قصى عصر رماً، ظهر في كافة افراحه، مجموعها، لم يأمن أعداءه كهذه لفترة، يظهر في أسواق القرى، يتحدث الى باعة اسمك النقي، وقطع الطبخ، بالصعد قبل اكسار عراقي، نوات الأيام، تحسن وقع الطرية، وبدأ الحزن يفاجئه، لم يهاجمه سنين سجنه الطويلة، ياء.. لا يصارعه الا حزنه العظيم كلما تذكر موت الحبيب، المتجيب النحيب، ابن بنت رسول الله في كربلاء، في كل عام، عاشر محرم يقيم حداداً يكاد يهلك فيه، لكن الحداد، لو قصى لن يقوم أبداً، من يعرفه أحد، أبداً يصعب، إحتشاً في ثياب المفرد، القسي كما حشاً من فل في حراح صحيا المعول عوارم، انصوى مكتشاً في فوهات المدافع المطفئة، ناءت أعصاؤه باهم فاستتر، و أمسكه الاعداء لمرفوه قطعاً أكبرها في حجم الحداث الرفيعه داحن

نثر النامية، غير أن فلاحاً عجوراً من هذه القرية عرفه، تحسن سامي يعنيه السيوت في انظلام، ربما نام الملاح الفقير في بيت من هؤلاء، ربما طمع أثر قدميه فوق التراب الذي يطأه سامي الآن، اقتنى الملاح خطوات الامام، أقدم الأيمان وأحد على نفسه الموائيق واليهود، لن يعلن حقيقة الإمام لأحد، إنها غارتان في زمن الهزيمة، المرحمة غاصت من القنوب، أما الحزن فيثقل الجميع، شاب الاطفال، قال ناطق الرمال، أن هذه الايام البعيدة ذكرته نأيام أكثر بعداً، عندما دخل سليم العثالي أرض مصر وعجب سيفه في الرقاب فكاد يمي الخي ها، عندما اندفع المفول عبر بغداد واجتاحوا الشم في أيام، رأى في الاعداد رجالا من قائل الهون البربرية القديمة، أعوان تيمورلنك، الاسان الغزاة ذابجي هود الارتبك، محاربون متوحشون يأكلون لحم الانسان، ارتعش سامي، يكاد يسمع وقع سنايك الخيول، اصطدام السيوف بعظم الجباه، قال ناطق الزمان لابراهيم الملاح العجور، ربما لا يرى تحقيق الآمال، نموت محسوراً، أصر الرجل على صحته، رعنق مادياً ربه، عند قرية « شطب » جنوب أسيوط نسي أهله وماله، ناطق الزمان أبوه، كفته بيديه، صلى عليه، يومها تبللت السماء بمطر، ناءت بحمل غيوم ثقلا، رعنق الناس في الصعيد، أهذه نهاية الزمان؟؟ أحرق الجنان، نثر الرماد في أركان العالم ورواياه. ابراهيم العجور نمعه حتى النهاه، لم يعرف اليأس.. بكى ناظر المدرسة، العارفون به، الدين جاؤوا من القرى المجاورة، طهوا معه السيوت، يكاد سامي أن يرى الفلاح

العجوز، ابراهيم الراحل منذ مائة عام، ذهب ولم تتحقق الامنيات،
أما هو سامي فكل شيء يراه دائماً، يدحرج الجامعة، يصبح طبيباً،
يسمع صوت هدى، هدى الآن قرسه منه، تقول..

- مرور سنوات لا يعني شيئاً..

تقلب السكر في كوب الكركديه الساحن، لحظات صمتها في
أذنيه حديث متصل..

- إسمع.. نبدأ معاً.. نذاكر دروس الانجليزية..

لا تتدفق في صدره رغبة، يحنسها، يديب فوق صدرها حربه،
ارهاق أيامه، يرقص فوق الرخام، يشب فرحاً، يهدى، يعني
آلامه، آه لو يرقى في الناس، تقيص عواطفه، تعبر ضلوعه، ولا
عاصم بعد اليوم..

- لئلا يستغرق الامر سنة.. تعيد دخول الامتحان وألحقك أما في
الجامعة

أنست رغبة أبيك.. إنها رغبتي أنا يا سامي..

ينطق سامي، تتبدل الأشياء، يرق الهواء، يقول:

- هدى أنت رائعة.. أنت ملاك..

يا سلام يا سامي..

تصنق ما بين حاجبيه، يتلوى الفراع بينها بالآمال، تبدو له
سنين عمه القاسية وهما، اسرعه ليلحق مواعيد العمل، الوقوف
البهري الطويل، ابتسامته للزبائن، لم يعرف هدى حلال هذه
العقرة، كانت تعيش في مكان ما، قبل أن يعرفها. يفكر، لا بد أنه

سيتقي باسمه بعيش الآن في منزل مميع. يتحدث، تأكل، ترى من
هي؟ تبرق عينها في ذاكرته، في اتساعها يرى البلاد التي نفي
السفر إليها، السيوب المعلقة في النساء، داخلها أصوات الشارع
العبد، رقيق السكرى، هدى تحمل صبية فوقها أكواب الشاي
الساحن، بين يديه كتاب، في أنفه رائحة الأثاث البقي، تسأله عما
يجب أن يأكله عدداً، تتصل به في العمل، تدعوه الى غداء خارج
السب.

ألا تذكر.. اليوم عيد زواجنا الثالث..

تحلق دقه كل صباح، قيل تفضل ماكينة الخلاقة، يحطف منها
صلة، يحنسها عند وقوعها أمام البوناجار.

يا سلام يا سامي.. حاسب الشيء..

يدعوها الى السيغا، يصيان معاً، يسمع صلاة باطق الزمان،
حديثه الى مريديه، تصحك هدى، يبعث أبوه حياً، مورد الوجه،
فرحاً، لا أثر لشقاء السنين حول عينيه، يفض العمار عن لافتة
مدرسته القديمة، تعود طفولته، آه ما أقسى استرجاع الطعولة، يأكل
كشري الحاج عبد الماطي، يفرح لحي يوم الخميس، يمتد الجمعة،
اجارة، يسمع قيقاب أبيه العائد من صلاة الفجر، يفرح في لحظات
الهدوء بين أمه وأبيه، يعاكس الحاج حامد مدرس الرسم الذي ينفذ
في الفصل، يتأكد من إغلاق الابواب والنوافذ، يتطلع إليه الصغار،
يقول. اسمعوا يا أولاد.. اسمعوا غناء عن مصر.. عن مصر يا

أولاد، بحمر وجهه، ينظر الصبية ان بعضهم، يتصاحكون، يستمر
غناء الحاج حامد، لأن، يذكر مذاق صوته، يكاد يملكه يتحدث
الناظر، والحفير، والرجال.. لكن لا بد من مواصلة الرحيل..

- أرى ديبب أقدامهم.. أشعر باتشارهم..

أدرك سامي خوف، صاح طائر غامص في الفراغ السيم، هل
يجرؤ انسان؟؟

- أنا لا يدومني أحد.. عند الخطر استتر من جديد.. أذوب
في الصخور

الجالأ الى كهوف الجبلية أعوص في عروق انحناس في قاع
منجم بعيد.

غير أن الامنيات تشل الى حين..

سامي يهوي، تصدمه أرض مجدية، يسفح عمره عند أهق
المعيب، تعود إليه لحظات احتصار أبيه، رحيل هدى، احترق قلبه
يومها، ما الذي جرى؟

- متى يجيء الأوان الذي لا بعده ولا قبله يا مولاي؟

- ربما بعد شهر.. بعد سنة.. علم هذا عند ربي..

لو يزق سامي، يعبر صوته الهواء، يخفب صديد العيون، يدور
مع سيور ماكينات الطحين، أبراج الكهرباء، الجبل المثقلة
بالنوص..

- يكون عمري انقضى يا مولاي.. لا أسمع هدى أبداً..
أرضيك ألا أسمع هدى.. لا تعود من الحجاز.. لا أراها بكراً من
جديده.. لا أدخل الجامعة.. لا أدعيب طعني الصغير واسع
المعين.. طري العظم..

زقق ريس المركب، يلتوي الفلج التواء حاداً، يخف السواد،
يصبح لهر عن ملاعبه،

- شقى من أجل الاجيال المقلدة يا ولدي..

ينعم أهلها، يشربون اللبن من النهر، يطرح تخيلهم خيراً
وطائفة، يأوون إلى مضاجعهم آمين. العرباء المفعرون في سواد
الليالي، يرق هواؤهم، يصفو ماؤهم. ارتجف سامي، أين أنا عندئذ؟
أين موقع قدمي؟ أي أحجر تثقل رأسي؟ الظلمة تمشي عيني
حجمتي الخاويتين؟ أحلامي تتحمد في أربعة وعشرين ضلعاً، عمود
حال من النخاع، رسفان وساعدان، كل ما أصبو إليه، أين أنا
حينئذ؟ أين أنا؟

بمخوص مياه النهر الصحلة صياد عحوز، يفرس حرمة رفيمة
مدبة في ظهر النلطي والبياض، سامي يتأمل قدمي الرجل،
مستعذّن بالرطوبة والظمى، أخبرها أن القوارب ترحم في النهر،
صغيرة سريعة، في كل منها رجلان، يوقفون المراكب الكبيرة،
يتششون أواني العطار، يششون أجولة الفمخ والسج، حتى الآلات

الصغيرة المرسلة في لصائد، يكون ترونها، لم يد على ارجل أنه عرفها، يصاً م يتصح هل مجهها؟ لكن ما الذي دعاه الى احارها بهذا؟ عاد صامناً بحوض في الماء الصحل، نظر سامي الى مولاه، لظالما أطلقت عليه جبال أعلى من هذه، صحورها أفسى، يعرف العالم شبراً شبراً، وأرض مصر، يعرف أي تنوء حجري عند مدخل سالوط، التمثال الاثري القديم قبلي جينة، الغرف التحتية في الساء المشيد قبل الطوفان، حيث اجو رطوبة في النصف، دفء في الشتاء، يعرف المصباح، مواعيند تغيير الورديات، صوت مدفع رمضان في دمهو، السويس، صوته في قنا، يحملق ان قرع بعيد، رما يرى أشياء لا يراها هو، سامي توجعه خواهر مفاجئة، ربما يملو أربير طائرة، تطل منها عيون فاحصة، تكشف الحبا من الآمال. يسكون ناطق الرمان وتابعه الامين

جنود اللوري عند المدينة الربية الصغيرة، بكاء أحدهم على صدر الامام، أسمر الوجه يتوسط ذقنه وشم أخضر، مستدير، ناهت، رآه من زمن، كان مادة أحلامه، والصور التي تحللت أيامه، إبه من لاموشي، يمتلك دكاناً صغيراً يبيع فيه العول ولطعمة، رأى الامام في صباه، في كل تحويف يفصل نلاط الرحام الصغير الذي يرصع دكانه، في مرض أمه وشفاثها، انتظره عند ساحل البحر، في أبي قير، فوق الصخور، لا شاطئ، اما صحور وحشة، مقضية اجين، تلتقي التقاء صريحاً بالساه والبحر، لم ينله بأس، حتاً

يمطق الزمان، من ورقة المياه، من ملحوة طعمها فوق الشفاء، من الطواني القديمة، مواسير مدافع عرابي الملقاة برثاء، آه يا مولاي. جئت، وأين؟ هنا، ارتجف اللوري، لانت ذرات الرمال، مالت عيدان القمح، انتهل بقية الجنود، دمغوا، نزلوا من اللوري، تساءل سامي، هل يراهم ثانية؟ محمد ابن الانفوشي؟ حسن نساح الكلم من قوة، عبد الهادي عامل الآثار الصعيدى، السائق البوي، قال ناطق الزمان، حقاً سرجع، يلقاها ثانية، هو موجود حتى لو ستر، فوهم، حولهم، لا تعدد عواصف، لا تقصيه صغارات انذار أو دوي.

«لماذا لم يقل اليهم أنه رما عاد بعد ألف سنة كما أخبرني؟؟» ماذا يجيبون لو عرفوا أن الأعمار رما انقصت في انتظاره؟ اسعاذ سامي بالله، يعرف أن الأعداء يطرقون الوسائل كلها، رما بدروا الشك في حقن روحه، توحوها الى الحجار، ذبحوا هدى.. يحضرون دمها الحبيب اليه، يرمونه عن عينييه فيضيع منه ابصر، يقطع من رجوعها الأمل، شربها الكركديه، همسه الحفص، توقعها أمام قناريس الاثث، متاجر التحف، تقول هي، لا يد أن يحتوي الصالون على فارة صسية، قتال محارب رحجي، ترى الاطفال الصغار المصوعين من الشمع في متاجر الثياب، همس، أن أحب الاطفال، محمل، يحدد الحديث، تطلب بنتاً، يتمنى وبدأ، يكتميان لا أكثر، أما إذا جاء الاول ولداً والثاني ولداً والثالث، تضحك

هدى، لا بد أن نصر حتى تحيىء مديحة.. يسأل.. لماذا مديحه بالذات؟ لأنها تحب خالتها جداً، هي أمها التي لم ترها، لم تعرف إلا هي منذ الرضاع، يتساءل سامي، هل تذكر هدى بين جدران بيتها المعلق ما قيل؟ ربما أحببت ابنة الآن، حجازية الحسية، هل اسمها مديحة أيضاً، السماء خاوية، صحراء في عيني سامي، الدكرى تلون الأشياء، تنأى بالامام عنه، يفتق الى وجوده.

- لا بد أنهم يمدون مفارق الطرقات.. يحثون في عربات الرحيل.

يكاد يحس لون نظراتهم، قسوة حوداتهم المكسوة بشاك التمويه، الحلاك في أسلحتهم، تهب ريح عاتية، السماء حربية. الارض تقع ويصض الماء، سكنت الامام لحظة كالسنين. ثم قال انه يعرف دربا صحراوياً غرب قرية الضام ينتهي في صحراء السودان، لم تطرفه قدم اسان منذ مر به يشعه إبراهيم الفلاح العجوز، يعضيان فيه، يخرجان شمال أسوان، ثم يعضيان، حطت قدماء فوق الحصى، رق القمام، غير أن شبحوحة غريبة، زحفت في عروق سامي، لك أحس بقصر عمره، في مقهى الكيوب العصري بطوف رجل صخيم، يرتدي معطفاً جلدياً، فوق ظهره رسم لوجه أحمر، مشوه الملامح، بارز الانياب، لا يدري أهو لحي أم انسان؟؟ أربعة شهور، في كل يوم، نفس الميعاد يجيء، يضع بطاقة صغيرة فوق مضددة الرحام

«اقرأ الكف، حاضر، مستقل، احلام، اميات - سيد سعيد»

هر سامي رأسه، يمضي الرجل، حتى استبد الفصول بسامي ذات مساء، شد الرجل كرسياً، سط سامي راحته، ضيق الرجل عيبيه، اسد رأسه إلى يده، رأى سكة السر، وصفاً في العمل، ومرصاً في الصعر

- لكن عمرك قصير.. ولو عشت مائة سنة .

ماذا يقصد؟؟ أي شيء يعني؟؟ لكنه قام، دس بطاقته في جيبه، طلب خمسة قروش، في هذا الوقت لم يحس على سفر هدى اسابيع، هجره اليوم، راحة عقله متعة نائية، لا يدرك صاحب المتجر ذرة من همومه، أما الربائن فيشيرون، أعطنا من هذا، لا.. من الآخر، اقطع أربعة أمتار، لا داعي، نلف وبرجع، يشرب الماء تسبقه الاقراص المومة، حكى ساطق الرمان عن عذابات الليالي، هره حتى يجيء الرجل العجوز مجذوع الانف، في الفجر تماماً يصيح.. «يا نائم قوم وحدك الدائم.. بكرو تقوم القبامة.. ويستص الميران، يقى الي وفي يعدي.. أما اسقي حيران» يدرك أن يوماً انقضى، يرقع الرجل، تبقى النواخذ معلقة، من عشرين سنة، اذ يقترب الفجر، يصبح رجال الحارة على بعضهم، الحاج حفي جساس البهائم، يدس يده طوال النهار في الارحام يعرف الاشئ المقلدة من الذكر، يصبح على سعودي الجرار، سيد التري، عني المكوجي،

يماذي أبوه. في دفء فراشه يسمع وقع القناصب فوق بلاط المساكن،
اندفاع المياه من الصابير، تجمعهم في الحارة، عز ليالي الشتاء،
يصوب إلى الحسب، أصواتهم عذبة، تنقى معلقة بين السبوت ربما بعد
دهائم

آه لو يسأله سؤالاً واحداً.. هل يبوي الاستتار عنه، الاستتار
عنه هو؟؟ هو الذي باع كل شيء، لا يجرؤ على نطق الكلام، يردده
عقله، في خطوه فوق الرمال القاسية، تحت انصهر الشمس الذي
يزرع نموس في العيون، يعرف ان الامام يدرك ما في خاطره، عالم
بكل شيء، قرأ كل ما جرى، وما سيحدث في كتاب الجفر الذي
تركه الامام علي، فيه رعدة لامل، حفة القلب، هم الفكر، فرحة
الغريب بالعودة الى دمه البيت، آه لو يجيب حيرته.. بفك ضيقه،
يسلم عذابه... لكنه لم يفه حرفاً..

«مناجاة القلوب»

ماذا يفعل بدونه؟؟ يحسقه بأس مغرب كالغزاة، لحيته طالت،
ملاحه تغيرت، قبل رحيل أبيه، موت امه، قبل حدوث شيء
بحيف، تمر به لحظات يتجسد فيها ما هو متوقع، عند خروجه من
سبيل الكواكب، عودته الى البيت في منتصف الليل، يرى اللحظة
التي تموت فيها امه، بكل سوادها الذي يتزف دماً، عندما رحلت
رأى أن الموقف غير جديد عليه، الآن يبوي قلبه بين صلوعه، يرى

لحظة مجامعها، استتار الامام، احتجابه عنه، هل يقتل نفسه،
عند؟؟ وهل هذا سبيل للعشور عليه؟؟ الآن يجلس امام كشك
صغير داخله عجز بوي، يجرس ملايين الاذن من الطملة المترعة
من السجم القريب، محجور منذ شهور، لكن من يتوغل اربعين كيلو
متراً شمال اسوان في الصحراء ليسرق حصة حجارة أو طر حتى؟؟
الصخور ترققها، تتحد أشكالاً عريية، وحوه أدبية، سيوف
مشرعة، يبارق مكسورة، فيها يرى كل شبر وطأه مع مولا، القرى،
الآمال في العصور، بلاد الاعيان انائه التي شرعا في الرحيل لها،
الحند، البحار الجسوية، سقن صيد الحيتان، رائحة العشب في
العانات، قرقرة الترجيلة فوق المضاطب، تطلع الجراس في بطاقات
المرء، في الصحور عيون واسعة قاسية فارقت رؤوس أصحابها،
ناطق الرمان صامت، لماذا؟؟ لا يتحدث عن جيوش الاعداء التي
رأها، أو عصاة لارض ساعة الزلزال المصانبات، الاوثة نكس
الشعر، يسبح بعينه عبر الافق، ايكشف حجب المستقبل، ربما ضاع
منه كتاب «الحجر» الذي يحوى كل شيء من بعيد بحو عويل
قطار، يفاجئه حين لساها، شعور العربة المكثف لحظة عودة
لأسرى، لماذا يسكت الامام؟؟ لماذا بطل الجرمان من جديد؟؟
يكاد يصرخ، يطلب منه ان يصارحه بما يبوي، اما الحارس الموالي
ينظر اليه ولها حاشع، كأنه قصي في رفقه العمر كنه

قال إن عربة لاندروفر، تنحه الى حشا الصحراء، ركابها

أربعة، يحملون أسلحة وآلات بصوير، معانهم تعبه الشمس، تابعها
بصره حتى اختفت وسط أعمدة الرمال الناصبة التي ترتفع من
الأرض لتتصل بزرقة السماء ساعة الظهيرة، تغطي في الفراغ عواء
دثب، قال الحارس العجوز، كأنه يقدم تقريراً مفصلاً، ثمة طائرة
حومت إلى الشرق، جرادة ضخمة، يظن البحر مقصدها.

سامي يرى نفسه الآن مصلوباً ساعة مقبب، ينادي الامام أن
يظهر، بعيد ما انقضى، كان يخرج كل ليلة إلى مقهى مصطفى
درويش بعيدان الحسين، يشرب الحلبة، ينظر السات المسرعات إلى
بيوتهم، يرى رجلاً مجذوباً، يلف حول رأسه عمامة حمراء في لون
ابدم، يلبس جاكيت عسكرية عليها شرت وبياضين يحاررها عطش
رجاحات اسيرة السبي كولا، يرفع سيفاً حشماً، ترصد أعداء
يراهم هو، يطارد أحناب خان الخليفي إذا ما حاولوا التقاط صورة
له، صار يعب في الميدان، لحظة العروب، ينادي الناس ألا يقلل
والهزار إلا يرحل، يرميه العيال بالنطوب... بلعو... بلعو... عند حارة
الوطاويط رآه دامي الوجه، يمشك إحدى أسنانه بيده، أي بشر
يدنو منه، هو عدو يعني رأس الحسين بسوء، سامي الآن يرى عنقه
في قصة جدي يسوقه إلى عرفة المحر في قسم، يقفه بين النصوص
في غرف المحر يسألونه لماذا جاء، أي تهمة؟ لماذا يجيب؟ لا يأخذ
بأس، يفتش تحت أحشاب الحجر، وراء طلاء الجدران، في
القصاص التي نور العمر، في عرف السديب، في اللوريات ارماديه

المعلقة، تأتي امرأة سجين تناديه من الطريق، يتعلق الحسين بقضبان
النائدة، تحكي له أحبار العيال، ذهاب أخيه إلى المحامي من أجله،
أمه بجير، سيجذب سامي الرجل، يتعلق بدلا منه، يسأل المرأة،
عابري الطريق عن مولاه، أه، يتفرق الحزن في عينه، يرى نفسه
معتقلاً، أو نزيلاً في مستشفى للأمراض العقلية، ولو... سيبحث عنه،
ربما تحمي بين انزلاء، في الأشجار الجرداء، في درت الرمال
المرشوشة بالبول، كل صباح يكتب خطاباً إلى هدى، ينتظر مجيئها
فجأة، تطيع أثر قدميها فوق الأرض التي مشيا عليها من قبل،
لكن لو ألقاه الأعداء فعلاً وراء الأسوار، من يزوره؟ من يحمل
خطاباته ليلقيها؟ من أين تأتي بطوبع الريد؟ روح أبه تحوم حوله،
يرى أمه وهما عند أشجان الفجر، أه لو يقول كلمة، صمته يلوي
روحه، يفيس أسياخاً نحمة في قلب سامي، لو كلمة، أه يا ناطق
الزمان، يا إمام، العمر الطويل تهيد للحظات الصمت هذه،
أهكذا.. بساطة حادة مرهقة كحز السكين.. أهكذا؟

(دمعة الباكي على طيفها منصف الشاكي)

(... سبحانك يا من أنزلت الكتاب المبين على نبينا أشرف المرسلين، وقصصت عليه أخبار المتقدمين والمتأخرين، حمدك أن جعلتنا من أمتك، وحشرتنا في زمرك، وبك نستعين، فقد شغلني أمر هذا الرجل الغريب، المعروف بين الحاضر ولعائب بطيفها، فصرت أستقصي أحواله وأحاول أن أجلو أخباره حتى وقع بين يدي من محلات السلف هذه البعد والشتات، للفقير إلى ربه (ابن أجداد) والتي عنوانها (دمعة الباكي على طيفها منصف الشاكي). وقد فرحت بها فرحا عظيما لأنها تكشف بعض ما غمض وطواه الزمن. قلت فلأسحها وأرسلها للأصحاب ربما نالنا من هذا بعض الثواب والحمد لله رب العالمين..

(أقول وكأن هذا يجري أمام عيني الآن أن الليل كان سحبا مهولا معتما حتى النور فارق العسكر، صاروا يرفعون، الله أكبر. الله أكبر، أما الجيبد فالقطن المدوف أشبه، وإلى ريم الصابون أقرب يجرى من السماء وبطلع من الأرض فيكاد يبرق حيلنا وأحلامنا، انقضى وقت طويل على حصار مولانا سلطان المسلمين لآخر قلاع

الفرجة في بلاد الشام. صار كل ما يقول، أما ذلك الحصار فالجند
محبوب، أو الاندفاع، سرى الحمس بأن ناشير وباء بدأت، ان م
تتداركه فيرميها لقمة هينة سائفة أمام الكفرة. قرب الصباح،
النهار قريب، وارتجت الأرض رجاً عطياً، وأصعدت لوادي يبراق
المعوط التي سلطت على أسوار القلعة، أحداً، لم يعرف، أجهض أم
هوجماً، صرنا نحن المشايخ نقرأ لأورد والأدكار بطلب الرحمة من
رب العالمين، صهلت الخيول أجفلت الأرواح في الأبدان، سرى
الخبر بيننا كالنار في عيذاب البوص، اسدفع صفوة من فرسان
الاسلام الى القلعة للمعاراة في الفرجة الكمار وهاء لحصار، قيل
من أمامهم؟ جاءوا الجواب، الأمير طيبعا أتى سقر، أول مرة اسمع
فيها الاسم، لم يقض الكثير حتى تدافع العسكر من ثغرة كبيرة الى
داخل القلعة. أقول وقد غايست هذا بمصفي، ان الجنود الذين نال
صهم التعب وبدأ منهم الوفاء، رأيتهم في لحظة اسدافعهم، أذكر هذا
طوال عمري فالتساءل ساعته محملة بعيوم ثقان لها عيون وآدس، كل
التعب ضاع وراح، رفع المرحمة الأعلام يطلبون الأمان، دحر
سلطاناً المدينة يهرج عرجاً خفيفاً فاحدى ساقيه أقصر من
الأخرى وحلفه حملة المصاحف، يصيحون، مكبرين مهللين، عبر
أنه قبل جلوسه على حجر أو دخوله الى مكان، نادى من حوله،
أمرهم باحصار فارس الاسلام الأمير طيبعا أتى سقر من ايبال.

عابى سلطاناً الأمير طيبغا وضمد بنفسه جروحاته، أعس

المدون أنه استقر به نائباً للسلطة، محتصاً بالمظالم والأحكام،
لمجيئ الألسن بأن الناصر سوف يعقد لابنته على طيبغا، لم يتم
الزواج، فلا أستطيع الجرم هل فكر سلطاننا بهذا أو لا؟؟ كما أبي
واحق أقول، ست عليها بكل الأمور ولم يتحر طيبغا معي في حكايا
الساء، مرة وحده فقط كنت حديث معرفة به، شورني في شراء
جارية سوداء يقال لها اتفاق العوادة، ضحك وقال، فليحرب سباع
حوري السودان، حدث أن بعض اللثام أشاعوا أنه رتب أمراً مع
تاجر الرقيق الحشوي ليحضر له صغار الجوارى السودا، قالوا انه
يهوى ذلك، أعود الى ما كنا فيه، فأقول ان بعض الأمراء أدركهم
الفصيص وأولهم طشتمر جندار، ذهبوا والسلطان قلاوون في طريق
العودة، داروا في الكلام، تحبوا، كيف يأمر سلطان المسلمين
بأقرار طيبغا وهو ما زال غصاً طرياً - كان صغير السن شاباً في
هذا الزمان - نائباً للسلطة، يحكم في المطام الكبيرة ويكفل حقوق
المؤمنين والأيتام، أصفى ليهم، دار برأسه إليهم، قال: أهذا كل ما
عندكم؟ قالوا والله نحن نخاف سلطاننا، قال وعباه في الأرض لا
تحيدان، غوروا من وجهي، لو كررت هذا نقطعت أجسامكم وألقمتكم
وحوش الأرض، ارتجعوا، تنهقوا، استدركوا فارطهم وأسرعوا الى
حط التباة، السكون في لدار، العبيد يقمون في الروايا والأركان،
حتى نائباً لها، هز رأسه: ادعوا لنا حتى نشفى من جروحاتنا،
اطبوا لنا الرحمة والمعرفة.

نزل الليل ناعماً كزيت اللسان، الصيف تكسرت حدته، في كل ليلة يتوجه أهل العلم وأصحاب المعرفة من التوريج إلى بيت طيسا القائم عند حط التسمية، السكون في الدار، المريد يقعون في الزوايا والأركان، حتى بعد استقراره نائباً للسلطنة بقي في بيته. أبى الطوبى إلى القلعة، هنا نكون أقرب إلى خلق الله، هكذا قال. حل الخدام قوارغ الصحن من بعد أن فرغ الحضور من العشاء قال الشيخ سراج الدين أنه جهز من الألباز ما يعجز الجلوس عنه، تدر يلما الحيواي أمير احور وأعر أصحاب الأمير طيسا الكلك سيحلون الألباز عدا أنت يا شيخ سراج، روح الشيخ بيده، أنشد: وذات دؤابة تنجر طولاً . تراها في الهيم، وفي الدهاب وما لبست مدى الأيام ثوباً . وتكسو الناس أنواع الثياب .. نغداهم الشيخ أن يحلوا المعر، علت الأصوات، كثرت التفسيرات، طيسا هادى ينظر إلى الجلوس، وجهه مريح لكنه عوس، يفكر في أمور بعيدة لا تعرف ما هي، أخبرني في بعد أنه يضيق بالكلام لو دار ولف ثم استكان، تنقل الليالي في نظره، يفارقه الأصحاب صمق في الحبال، ما أصل الحياة؟ غصي سا أي أي حال، صحك الشيخ سراج، صاح أقول لكم، هي لآخرة، لم نكد يشرع في الحديث حتى علا صوت صاح في الخارج، الرعيق أرحف منه النافورة التي تنزل السكينة في اخو، قال يلما الحيواي عجيب، من يجرؤ على الصياح؟ خرج طيسا يلتحف بعباءة حرير شاهاني أصفر، قال المبيد: لا تؤاخذونا مولانا لا شيء يمكن

الهدوء، خط عبر الحديقة، برز شاب يرتدي ملوطة مرق الشاب جحط العيين من فزع، انطرح قبل الأرض، أعانته طيسا، أحده، شاب ملبح حلو لصورة صوته مرتعش، أب حارن السروج، رأيتني كثيراً، هز طيسا رأسه، أخذه العجب، يراه كل يوم، يضع سرجه فوق الحصان ولم يحفظ خلقتة، ربما لم ين بالظر إليه، ربت على كتفه، بكى الشاب، لا تؤاخذوني يا مشايخ، ادفع شكياً ناكياً، نادياً حظه، مد أسابع تروح ست ناس رفيقي الحال، لكنها ذات حسن وجمال وكمال، وبشاء الحظ أن يلحقها في سوق الشامعين، الأمير جككي ابن البابا فاهز السبعين، عرف عنه ميله الشديد إلى صميرات السن، ويقال أنه لا حول له ولا قوة معه، بمجرد أن رآها طاش عقله، صاع صوابه، قال هاتوا لي هذه، لا أنام حتى تكون عندي، قام رجاله وراءها، رنقوها عند سوق الخنيس، الوقت عروب، أحاطوها، لفحوها ثم ولوا، بكى حارن السروج، امرأته يتيمة، مسكية ستموت تنوها، ييحبها، يحبها والدنيا فيها الكثير من الحرم هنادا امرأته من دون النساء، قال الشيخ محب بن سانه، وما نطه سيفعله لك أميرنا طيسا؟ ثم أطرق طيسا مقدار درجة، صاق برد الشيخ، تعلقت عيون الباقيين بوجهه، إذ سقط عن الشاب سقطوا عليه، إذا أبدى الترمق تهوبوا به، طمانوا أرواحهم أن الأمر سيعدني، ليست الحادثة الأولى التي يأتينا ابن البابا، وهو صاحب سطوة وهيبة، يخافه الكثيرون، مال الأمير يلما همس في أذنه طيسا قال له مثل ذلك، غير أن طيسا قام فجأة، نزع عباءته،

صاح على الثوب، ثم وجّه ركبتي التفت، لا ينام هادئاً في بيته وقد لجأ إليه صاحب مطعمة، بل الارتجاع والخوف على الوجوه. الفاعل جسكلي بن البابا، قال لشيخ سراج، تمرص بمسك لحصونه يا أمير، ارداد طسفا قطعاً في هذه اللحظة مع أنه في سسل فعله الخير، قال لن يوصى سلطان مثل هذه النظام، قال يلبغا، لكن حدث الكثير من ذلك ولسان حاله يقول، لماذا تستعرك الحادثة بالذات؟ لم يجب طينغا، حرج لساعته، كنت مهموماً عليه، انصرفوا كلهم حتى يلبغا السحاوي ربما انقلبت الأمور فيدهم طسفا في سته عندئذ يؤحدون، قلت والله لا أصصي حتى أعرف ما جرى، وأوعل الليل في العتمة، عظم البرد، خلت نفسي في ليل شتاء عسى

وارغمت القاهرة رجلاً شبيهاً رجفت الأكن بما جرى وكان، صار العمة في الأسواق والزرع وأسافل العياق، وأوباش الدس الشلاق، لا يلوكون الا ما جرى، ترامى الأمر سرعة كصعير الشرر لو دب في العن العظم، فوجهه وأشعله، أقول وقد سمعت ما در بأدي، ان الحديث واحد في الحوار والطرفات، بين الحرم في النبوت، فوق الأسطح، وكلما قابلت اسماً ندرت سؤال، هن دريت بما كان؟ والحق معهم، فلم يحدث في سائف العصور والأرمن، أن أميراً أقل رتبة من أمير عاي الشأن، يجبره على التراجع في أمر أثناء ولم يعد في حس، وزاد الأمر هولاً أن طسفا وجسكلي يملكون لسلطان واحد، آثار هذا حميفه أرباب الجاه قتلوا فعلها طسفا فرج عليها العوام، لكن طسفا ذاع أمره واشتهر، وصار كل من عنده

مظلمة يقول، هيا نذهب الى طينغا، يسأل من هو؟ فيقال هو من رث امرأة خازن السروج الى زوجها بعد أن خطمها أمير كبير جسكلي بن اسبابا..

حكى الشيخ جلال الدين الكندري في تاريخه المعروف (الطريق الآمن إلى حقة أهل القرن الثامن) قال لما شاع أمر طسفا قلت لم ير علي شخص كهذا، والله لأذهبن إليه، أراه وأحادثه بصبي، وجدته متواضع الثياب، بينه قليل الرياش، رأته صبح بوجه عظيم الشعة ألدغ اللسان، بصيء اكلام غير أني قلت ليس هذا ذا شأن قلت كيف تنقد امرأة واحد من العوام وتعادي جسكلي وهو من عشرينك وأبناء جسك؟ قال لسان بطيء، تحرق قلبي النظام، السماع بها أو رؤيتها، تمهل وتابع، وقدما مشيت في الركاب حطمت العائم من فوق رؤوس الناس أوقع أصحابي شوخ كبار كنا صغار غير أني كنت أرثي لحال القوم الذين يطل من عيونهم السؤال شكوت ليسفا صاحبي حالي، لكنه قال ما الذي تطلبه من الدنيا وأنت في أحسن حال، عندك ما تشتهي من جوازي الروم والسودان هل سمحتم الدنيا على رأسك ومشي تصرخ بها؟ للكون رب يديره، في ليل آخر سألت يلبغا كيف مات ألف ألف انسان في الوفاء الأعظم كبري، قال يلبغا ماتوا شهداء قلت وما العرق أن يموت ابن آدم شهيداً أو غير شهيد، قال يلبغا، أنت تحبرني يا أمير، لم أطل معه، سكت، لكن قل لي يا شيخ جلال الدين وأنت رجل مطلع، كيف

تمام وكل يوم يقع من المظالم ما تنكسر منه الجبال؟ أطرقت. حرت في جوابه. شفت عليه في الكلام، هل ستعدل الدنيا يا أمير طيعة؟ رددت مخطوفة إلى روحها فقلت الكون وآليت الأمراء وهيئت الخواطر وأحققت العوس فما بالك لو شرعت في قص المظالم؟ صاح طيعة: والله لا أسمع عظمت إلا وأسل دمي في سبيل ربها عن صاحبها والله لا أرد عن بابي صاحب سؤال. أقول للحقيقة، أني فمت من أمامه وعندي رهبة رائدة وحيرة مما أسمعني، لي، غير أن الأيام جاءت بالغريب.

* * *

ضرب الأمراء شجرة اتفقوا على طلوع طشمر الجندار وسنقر الحارندار، إلى السلطان كحك بن الناصر محمد بن قلاوون، ركوا حيلهم، النهار في أوله، قلا الأرض بين يدي السلطان أحر طشمر والدفع بحري من عييه الأحوال فسدت والأمور اضطربت ما عاد للادة حرمة في الدير، أحر وجه كحك، كان صغير لس. لم يحس عليه مد اعتلائه السلطة غير أيام، ما الخير؟ انحصص صوت طشمر، نائب السلطة يا مولاي أتى جرماً عظيماً وفعلًا مهولاً، مع هدم ربع قديم، كان لا بد من إزالته ليتمكن الأمير أقباي من بناء جامع، وما راعه أقباي في ذلك، قال طيعة أن الميت به سبعائه نفس، أين يروحون؟ تصور يا مولاي، يحجون دور قديم بيوت الله، الأدهى من ذلك يصنف لعامة على أقباي، صاعنت هيئتاً بسبه، سهم السلطان ثم قال، شوقوا يا أمراء لا أنت حتى أشار أهل

الرأي، صاحوا ومن هم أهل أبرأي، مولاي ألسا رجالتك؟ فان كحك بصوت حميص أوصانا واندنا بطيعة ثم لي لا أرى ميا أته ذنباً شيعاً، يا أمراء. تذكروا أنه أول من رمى نفسه وعازى في آخر قلاع الكفار، قلا وهما جرعان. وبيت الله يا سلطان المسلمين يا حامي لدارين! قال كحك امسحه أرضاً حلاء من اقطاعي في الريذانية..

هيا إلى العشاء. قام، في هذه الأيام ازدادت قامته طولاً، عظمت مهابته لم يسمع إنسان في بر مصر يذكره مقروناً بقبحه، أو عدم ملاحه، قام إلى هاء الدار رجال الصوفية من أساع السطن المجاهد سيدي أحمد الدودي واتبع انقلب سيدي الدسوقي وسيدي الرفاعي، عليهم جميعاً أعصل السلام، احشروا يا رب في ركاكهم، وعزز بأمشهم الإسلام، العشاء أباحه طسفا لكل ذي حاجة أقول أن مطمح الدار يذبح كل يوم مائة رأس غم وثلاثمائة طير، غير المأكمة والقل والمشموم، يتضح المطمح في اليوم مرتين، ساعة العشاء يدخل القراء والأيتام فإد ما برع الواحد منهم قام فيحيي غيره في العصر ينقص العشاء، غالباً لا يحضر طسفا يكون مشغولاً بالطواف في الحواري والأسواق يسمح أرباب الشكاوى والحاجات، يفض المنازعات، أما العشاء فيتصدر فيه المائدة، ينظر صيوفه، يعرف واحداً أو اثنين، الكل وجوه غريبة، لكنهم ينظرون إليه، عيوبهم ترميه، تعرفه بنظرات حب وحنان كأنهم يعرفونه من قبل ولادته، من سالت الزمان، كنت أواظب على الهجيء أما الشيخ

سراج وغيره فاحتضنوا عنه وصاحبه يلغا، بل سمعت من يقول،
 يلغا يرمي صاحبه بالجوارح سعدك معير النفوس والعقول إذ أن
 طسفاً عن ذلك أبعد ما يكون. مال عليّ وقال: دعوت طشتمر
 الجدار، وقفت اللقبة في حلقي.. كيف؟ لا يمر يوم إلا ويطلع
 لقلعه، يحط فيك عند السلطان، سيطر الأمر مكيدة لمسكه، قل
 طيسما، وغيره كثيرون ليس بيبي وبينه ما يستحق هذا، طشتمر لم
 أجالسه في حياتي لا أذكر شكله، قلت لكنه يعرف كل كبيرة
 وصغيرة يا أمير، صحك طيسما ويصيف أكثر مما يعرف قل أنت ما
 الذي بيبي وبينه؟ أطرقت. والله لا أعرف، كلامك يا طيسما
 بسيط، لكنه معجر عن الجواب واعر. دعاء الجلوس في أذني، قلت
 ربما حب العامة لك أقصد عليهم حالهم، سألتني كيف؟ قلت الناس
 كلها تنهج الآن بذكرك، يعوبون بك كلهم على مثال طيسما لصار الحال
 ولا في الخيال، تراجع وبدا حشماً مهيباً، عليه حرمة رائدة، لا أقص
 إلا ما يرصي ربي، قلت وعندي تلحج سن، إذا كانوا يطلعون
 القلعة ويدسون عليك ويحطون في حنك الفارع والملاص اصنع أتب
 مرة واحدة إلى كحك ولا تقل أكثر من الحقيقة، قال بإيجاز، لم
 يظلمي، كدت وأصل الكلام سكنت، لم أحر جواباً، الليل يوغل
 ناعماً وطشتمر لم يصل، ربما قال، يهيني طيسما بدعوتي للأكل مع
 العوام، ترايد صوت الصوفية حتى بدا كعيم الحمام في وجه السماء
 ساعة الغروب، ترجع طسفاً أغمص أجفني بشجن يقطر من وجهه،
 اصمى إلى المصور اسبي بتلو الأوراد صارناً عصاه الحديد بقصه

صغيرة، يخرج أحلى الأنغام، الدنيا مركب بلا رباب، بخار بلا
 شطآن، المسافرون فيها عميان، نزلوا الميعان كشفوا وكان، سيدنا
 حبيب الندمان، آه يا حسين، عليك أفضل الصلاة والسلام. جرى
 الدمع من عيون الرجال أحست بقلب طيسما مضيقاً في أصعب
 حال، يا شهيد يا حسي، يا من احدثت أم العلام، ابك مدبوح في
 حرك وأنت لم ندما تطلعت حولي، الجدران عليها مهابة ماء
 الورد في الأركان والحجارة لها عطر سلسل والله في الدماء رائحة
 اللسان، أود لو تعرف ما يقولون عليك يا أمير كان ساهياً، يصبي
 يلحمه بعظمه، بحسه، بنفسه ولو رآه الغريب لظن أنه في أبعد وأد.
 حرت فيما يفكر فيه، آه لو أتعد إلى عقله فأعرف، أقول الحقيقة،
 الحيرة تأخذني أمامه، شق جوف الليل صوت زعايرد تلطط من
 بعيد، ملت عليه، طشتمر لم يكلف نفسه إرسال من يموب عنه
 سكنت، سكنت، قلت إنها إهانة، نظر إلي، وكان الليل يدرك منا
 السحاح، ساعك الله يا ابن الحداد..

ركب قاضي الخنابلة فعلاً قوياً وقصد بيت قاضي القضاة،
 ترحل ودخل القاعة الكبرى، حيث جلس قاضي الحمة، وقاضي
 الشافعية، وقاضي المالكية، يتصدر المجلس الشيخ عبد الله قاضي
 القضاة، سلموا وتناقشوا في أمور شتى حتى أثار قاضي الخنابلة
 حقيقة ما جاؤوا من أجله، منذ شهر مضت قل نصيب كل منهم
 من القضايا والشكاوى، صار القاضي يحلس في شرفته ليأمر ويهيي،

فلا يجد من يجيئه ويشكو إليه، سرفه أو حطف، أو حتى قتل، فيقوم الواحد آخر النهار كبسه خال من أي درهم ريان كان يجيء من رسوم المازعاب ولا استقصوا في الأمر، وجدوا شيئاً عظيماً، الأمير طيعاً نائب السلطنة بدأ ينزل بعنه إلى الحواري والطرقات يطلع الربوع ويدخل الحانات يسأل أرباب الحاجات وحدث عنه كثيرون أنه أوتي من القدرة بحث يهي أشد الأمور تعقيداً في ثوب، حتى لجب السة الناس بالسب في حق انصاة قال قاضي الحصة، أنه سمع قائل يتهم قاضي المالكة بقول البرطل من الأموال فعملت الظالم على انطوب صاح قاضي المالكة أنه ترامي إليه من يتهم قاضي الحصة بأن عيه حافت في امرأة شكب روحه عنده، علت الأصوات، اشتد الرعيق، بار الغصب فوق الجماه؛ نزع قاضي الحافلة جيبته لا أكون قضياً بعد اليوم، ايش دخل طسعا في حوائج الناس؟ رد عليه قاضي المالكة، لا بد أن عرصه عظم، لم سمع نمل هد في فديم برمان، طيعاً بجعي عرصاً لثياً هو بتويس دعائم الإسلام، قانوا في نفس واحد، نقيم عليه الحجة والسبه أنه جدف في حق مولانا رسول الأنام، مجر السلطان على الأمر برحه، أطرق قاضي انصاة سبكون أمراً مكشوفاً مفصوحاً، حاصة واللعين، لا يفوته فرص، يجمع حوله لل دراویش، سألوه ما العمل إذن والحال متقلب، يخبره أن ما يفعله هذا يرسي إلى كسب العامة والأوباش، عندئذ يهمل له الركوب على مولانا. هل شتمت أحيث منه، يدعي الرهد ويعلم رجاله في كل مكان، طيعاً لي يبقی علی

مطلعة ويقتصر للظالم من المظلوم، حتى إذا استطال أمره وعلا محمه أظهر ما عنده، فأبى الملك، بالدمة يا مشايخ، هل سمعتم في تاريخ دولة الترك بديار مصر عن أمير يأخذ عن عاتقه قص المظالم، يفتح بيته لأولاد الحرام، يأكلون فيه ويشربون، قالوا والله ما سمعنا نمل هد، صاح شح احسانة، أنه لوطي فاس، همس فاصي القصة، تسح وجهه ابتسامة لها رائحة العنبر، ليس وقته يا شيخ أحمد.. ليس وقته..

لم يكذب يبدأ المؤذن في الأذان حتى علت ضعنة وكسكة من ناحية جامع الحسين ويذكر عباد الله يومئذ ان الكل فابوا طيعاً مقس طيعاً قادم من ناحية ام العلام، سرى في الجمع كالماء في أرض الشراقي، طيعاً وصل، مالب لرؤوس اصعت الأذان كأن الانص في الصدور موح علا وهاج يذكر اسمه وفي صحن الجامع كانت الشمس سطع والصوة في لمرع يسمع، دارت العيون ترمق الرجل الذي انتشر اسمه في سائر جهات مصر، حتى ان الكثير من الناس، تواعدوا إليه بشكون حالهم، وكثيراً ما يجيئه فلاحون، يقول الواحد منهم، يا أمير آخذوا أرضي وشالوا عني حملي ومالي، ولا أجد القوت، فيرسل معه من رجاله ما يرد له أرضه، زعم الاسراء ان طيعاً كان يهب كل من شرق وعرب، يستحب للناس مها قالوا له حتى احتلت الاحوال لكبي أقول وأنا واثق ان طيعاً لم يعصل في أمر الا بعد تأكده وتحققه منه، ما علينا، اقول ان اليوم جمعة،

وطسعا يرتدي الخنس من الثياب، حوله رجال، حليط فقراء وعامة
جهلاء. ثلاثة أو أربعة من كدار الاعبياء - لرموه ولم يفارقوه، كان
طول النهار يحول الطرقات، وشاب احب له طلوع في ظهره
وصدره يصيح امامه، والمحبب ان صوته قوي جهوري حتى تحاله
يطلع من غير جسمه.. من له مظلة فليعرضها على نائب السلطة
طبيخا، يتقدم الناس منه، منذ يومين مشى في شارع الصليبة، قام
بمسه بتسمير الاجبان والبيص، والحضر واستيوسك، وقد أثار
هذا المحتسب قال في رجاله وانا بعمل أيش؟ لكنه لم يجرؤ على
الزول ورفع السعر من بعد خصصه، ولو فعل لأكله الناس، وهذا من
مآثر طبيخا فقد كان المحتسب ظالماً عشوياً، يعرض الاسعار والمكوس
على هواه لعمد الله وارال غمه عن أمة الاسلام، لم يكذ القاصي عند
البر يسم وتنتهي الصلاة حتى التفت القوم حول طبيخا يتسمون له
يبدلهم الكلام كأنه واحد من العوام، والله كنت اعيب عليه
هذا - قلت يا امير انت كبير المقام فتعامل معهم باحتشام، غير انه
نتر في وقال: كلما اولاد لحواء وايباء لأدم، ثم هؤلاء العوام عيمو
اللسان، ولو عرفهم الواحد منا لما قيل عنهم ما قيل، وتصادف في
هذه اللحظة، ان حرج من الجامع ثلاثة امراء كانوا يصلون بجوار
النصي عبد البر أول الصعوف، أقول الحقيقة كانت لهم هيئة بلس
كل منهم الكلفة والعاءة امرر كثة كانوا في عاية الآهة الأمير
طشتمر المجدار - وسنقر الخازندار، ويلما وكان قد انقلب على
طبيخا وساعد عنه تهايموا وساءل طشتمر بألفة رائده عن الرحام

وتصادف في اللحظة أن واحداً من شلاق الناس صاح. أنصرو
لعرق بين انصالحين وبين ظلمة الاسلام، لفت القول أعناق الناس،
سمعت من يقول أليس هذا (يقصد طبيخا) من جنس هؤلاء؟ قل
آخر ألس هذا (يقصد طبيخا) أعلى مقاماً من هؤلاء؟ اكهرب
وجوه الأمراء من الغضب، صار الناس يرمونهم بجيار النظرات،
تراها ما بهم عما سيفعله طبيخا؟ ثمة قائل أنه سيتقدم منهم ويسلم
عليهم، وآخر يزعم أنه سيدنو منهم ويقطع هدومهم ويرمهم في
الوحد، يهدوء تكلم طبيخا مع الخلق، الأمراء منه على مسيرة
أقدام، لم يرم إليهم حتى يسلم ولا بدا عنه أنه لخطهم ولا سمع
الناس وهم يلوحون لهم، ويجهرون لهم بالكلام الفاحش المكي

(هات ما عندك) أطرق طشتمر، همس بصوت خفيض:
الأمير طبيخا يا مولاي! زعق السلطان قلت لكم طسعا أوصا أبونا
عليه وله عدنا حرمة ما أريد سماع الكلام فيه، الليل ناعم، الدفء
في العروق والأوصال، لب الحشيا يتسرب الى الدم والمفاصل،
همس طشتمر، صوته يرداد انكساراً أوصى الامراء كافة. أعرف
يا مولاي. لكن متى إلي حدث جلل.. رم سلطاننا شفتيه، قال
طشتمر، دأب طبيخا مدعي الرهد والصلاح على السهر في بيته
يقارع أولاد الحرام كؤوس الخمر وفي ليل أس طار دماغه حتى أنه
وقف في صحن داره وهو يصيح.. لا تؤاخذني مولاي.. خيم
الصمت المهل على الصعة، ارتجف النسيذ في الدنان. راح السكر

من العقول. رعى السلطان: قل ما عندك! قال طشتمر والأسى
المظيم في صوته. ونف يا مولاي ونادى بأعلى صوته هاتولي قطقط
هاتولي قطقط.. أنا عايز قطقط. طق شرار العصب من عيني
السلطان كحك رمى الدورق في الأرض ضرب جدار الرخام،
طلب من طشتمر الكف عن الكلام..»

* * *

لما شاع أمر مخطوطة «ابن الحداد» وانتشرت بين العوام
واقباء والمشايع ومساير الناس قام الشح اخنبل والعالم اللودعي
الفصيل أحمد بن عبد المقصود الهندي بتأليف فصل في الرد على ابن
الحداد. ولد فصيلته عام ١٠١٦ هـ ولا زال يدرس الفقه في الأزهر
الشريف..

«إفحام أهل العناد بالرد على ابن الحداد»

أقول ولا أبتغي غير وجه الحقيقة، وإنقاذ الصدق التائه في
الدالي العميقة، انه ما من موضوع طرقي، وأحد من الكد والجهد
بمدر موضوع داك اللعين الدجال الامير طييعا اى سمر من اينال
فقد سمعت ما يتناقله عنه لجهال منذ ما يزيد عن مائتين من
الأعوام ودعني هذا إلى استحلاء الأمر فتبين لي أنهم يحكون عنه
الكثير بلا أصل ولا سند، من ذلك قولهم ان السلطان كحك دس له
السم المظلي» حتى قتله. وسبب هذا علمه أن طييعا صاح في أحد
مجاله هاتولي قطقط وقطقط هذه محطية السلطان السودانية ولا بد

أن هذا صحيح، فان الحداد نفسه يذكر أول كلامه عشق طييعا
للجوارى السوداى أقول واستعرك ربي انه بعد اطلاعي على
مصادر كثيرة ومؤلفات عديدة ان طييعا لم يكن بهوى الجوارى
السوداى - بن كان بهم ويعشق العلبان السوداى، كان فاسقا لعيباً لا
يستقيم له حال، فكيف يتأتى له كل ما يقال من معجرات لا يصدقها
عاقل ولا حتى في حال أقول هل عجز السلطان عن قتله أو شقه
حتى يدس له السم المظلي؟ يقول ابن الحداد ان كحك حرف هباح
العامه، وانهم صاروا بعد موت طييعا يلصون كحك واذا ما سمعوا
بركيه متجهاً إلى مكان أقبلوا عليه كالجراد المنتشر، يسمعون فاحش
الألفاظ، ويتكئون عليه في الكلام، حتى هم في مرة كادوا يقتلوه
فما أغضب السلطان وأمر بالقص فيهم على ألف انسان ودعهم تحت
الليل، هكذا أفسد طييعا الرعية على مولاها وسبجان من له
الدوام، ثم كيف يقتله السلطان وهو أول من مشى في حرارته، ولا
أجدي ها غير ساخر من حكايات بن الحداد التي صاعها عن أيام
الوفاة، لحيت طييعا أطفال الله مدة احتصاره فملعت أربعين يوماً
كاملاً، وهذا لم يحدث لمؤمن حتى في عابر أو حاصر الأرماس. يرغم
ابن الحداد أن العامة عصت هم الدار. وقد الملاحون من الأرياف
جماعات جماعات، يندرون التدور للسيدة زيب، يتشفعون عند
سيدي زين الدين، وسافرت جماعت منهم إلى سيدي المحاهد أحمد
الدوي، يسألونه أن يشفي طييعا، قال ابن الحداد، أوصى طييعا
بتوزيع اقطاعاته كلها على فقراء الملاحين العوام بعد موته، حتى

بساتينه، بحينه، ما يقع في رامة من طرح الهر، أقول كيف يطلب
 الفلاحون له الشء وإطالة العمر، وهم ينتظرون موته ليأخذوا
 أرضه، أليس هذا من تحليط ابن الحاد؟ ثم نطلع علينا هذا القصة
 الجبون المأجور، رواية غريبة عن يوم الوفاة، اد يقول في الليلة التي
 طال احتصاره فيها، ونصت الدم من فمه خيوطاً، قام واحد من
 دراويش الصوفية، صاح في اناس أنه أعفى هيبه، اد به يرى في
 اناس شبحاً مهساً، جلسانه أبيض، دعه عظيمة، يشك في أنه احصر
 عليه السلام. قال اذا كنتم تريدون لطسعا الشفاء، اقرأوا صحيح
 السحاري ثلاثة آلاف مرة، وسورة يس أربعة آلاف مرة، بصوت
 عالي، قل الدرويش هذا، بسرعة تصامن العوام، أحضروا الغناء،
 بدأوا يقرأون في صحى اندار، يقول ابن الحداد، ان العوام ردودوا
 وراء الفقهاء ما يقرأون، حتى ارتفعت السماء رجاً مهولاً، ارتفعت
 المدينة من المرع والرهة، الطرقات أقمرت حيم عليها رحمة، حتى
 أن القلوب عاصت في الصدور، وكادت أن ترمي كل ذات حبل
 حملها، يزعم ابن الحداد أن كل واحد من اناس، تمنى لو أعطى
 صبيفاً من حياته لكن قبل طلوع النهار، قبل انتهاء الفقهاء من
 التلاوة، شفق طيبفا شهقة مريمة، انخلت لما قلوب الخلق، طلق في
 رأسه فرخ جمر، انحبس نفسه، وانكم حصه، قيل أن السماء اسودت
 سواداً حالكاً، ساعتها ودوت الفرقة من بعيد، حتى ظن الحصور
 أن الدنيا عصت عليها انفارعة، وحانت البارلة، وصرخت النساء
 وقمن يمين طيبفا بالطارات أقول ان طيبفا هذا لو كان صالحاً

فعلًا، لو كان عارفاً بالاصول، وراعياً للناس، لكان شفي ببركة
 قراءة صحيح السحاري، وبلاوة سورة يس المباركة، وبفضل طلوع
 سيدنا الخضر عليه السلام في المني، يزعم ابن الحداد أن اخلوانية
 صنعوا قناثيل لطيبفا من السكر، علقوها في البيوت والخانات، ولا
 زال الجهال يشتروها، وأن العامة بعد موت طيبفا لو حاقت بواحد
 منهم مطلعة صاح والله اني داهب الى فير طيبفا أشكو له الحال، ولو
 كان بعيداً لأرسل له لرقاع، وهذا عين الجهل، بما يؤكد ما ذكرناه
 من الاحوال.

اتحاف لزمان

بحكاية جلي السلطان

يسا من تعطي ولا تمنع

* * *

العد في دنياه بسعده، لا بأبيه،

ولا بجده، ولا بأصله

* * *

في الناس من تعدد الأقدار،

وفعله جميعه أديار

* * *

ان ررقــــــــــــــــت أثرت،

وان منعت مسرت،

* * *

من شك في ررقــــــــــــــــه،

شك في حلقــــــــــــــــه،

* * *

لو أن المعول تسوق رزواً،

بكان المال عند ذوي العقول

* * *

سحائبك يا من تعطي،

بجنانك يا من تأخذ.

* * *

كان العلامة عبد الرارق يجلس أمام دكاكي، كان يتيم الأب، من
ان واحداً من أهل الخط لا يعرف ولا يذكر له أباً، أما أمه فامرأة
صائغة تسوس الخيل، تتشاجر دائماً مع النساء بسبب ويدون سبب،
غير أن عبد الرارق كان صغير السن، هادئ الطبع، يحبه الزمان
لرقة خلقه، وخفة يده، ومهارته، ولم أسمع في حياته يزعمق لاسان،
وحسني هذا فيه فسمحت له بالجنوس أمام دكاكي.. ودا ما طفت
المهاليك في السوق كنت آويه في رمامي، وقد توافدت عليه خدم
انقلعة، واسيوت الكيرة. بل أن محمد المهتر يرسل في طلبه فيروح
عنده يخلق له، حتى جاء يوم علت شمس، وكثر حره، وتعاظم
غباره، فكأنه غصب من الله رب العالمين، على عباده الطالمين. ثم
المهتر في أول الطريق، راكباً بعلته، فصار الخلق يتساءلون من
وجهته، وحقيقة مقصده، وعندما حط ركبته أمام دكاكي.. الجمع
قلي، وأرسل حيراني التحدر يطلون حامى الحسبية ليدفع عنا
قد يقع عليها، في هذا اليوم لم يفتح عبد الرارق إلا لرجل أو اثنين

ما جعل رأسه ينعو ويتع على صدره، وعندما رأينا المهتر بشير ابيه،
ترحمنا عليه، ورحب نحن ما سيجري له، أمره المهتر بلم عدته، هنا
انكرش بصر الفلام ولم يعد يدري بميمه من شماله، فكأنه والساد
بالله قد أدرك يوم القيامة من دوسا، ولم نستطع أن نهو عليه. ولم
يخص لنا.. ولا بأهل حارته وهم يسعون وراءه يترحلون عليه،
ويأسعون على شانه. أما شيخ الحرفة فأحبرني في وقار أنه لو
عاش لسي له مسلسل عظيم.. ولصار مزيناً صاحب مح، يجلس
عنده الرباش، ويصنع على صدورهم العود المنقوشة، وقد جاءت أمه
مسرعة، حولها نسوة يحنن ويصرخن ولا زادت عن الحد،
خرجت وأمرتها بالهني عن هذا..

* * *

أما سبب ذلك، فانه كان لمولانا الاشرف أبو النصر قانصوه
الغوري أعر الله به الاسلام، أمين، لحية تحيط وجهه بهامة يرتاع لها
أصحاب القلوب الجامدة، وقد قام على حلاقتها جلي حاص عرف
باسم عم النور، وكان الحلبي ذا هبة وسطوة، اذ يزل من القلعة
تشي بين يديه الملان، يركب بعلته عالية، فوق كتفه موطاة حرير
كشمير، وهذا شرف لا ياله الاسان كأي شيء كان في ذلك
الأوان، غير أن الدنيا عرور لا تستقر على حال، فقد حدث أن
أشرف الأمير شريك الأعور إلى لحة مولان، قال اها م تعد تسو كما
يجب، فأنزعج مولانا انزعاجاً شديداً، وصار يتأملها، ويده
يتحسها، وبأصابعه يتخيلها، وسرعان ما ركبته الهمة، وتدقق إلى

كرسي السلطنة، عندما تُنظر إليها من بين الحواري، سمعت صوتاً
يناديني، التفت فإذا به محمد المهتار، قال تجهز.

غير أن رئيس ديوان الخلع والهدايا أخذته حسرة فذت إلى
مرارته في اليوم التالي، فقد جاءه الأمر الشريف بصرف كل ما يلزم
هذا الرارق ليملاً وظيفته الخلق، إلى جانب الخلع عليه بعودة
سمور.. وهوطه حرير كشمير.. وبالفعل.. فقد صرف له رئيس
الديوان بنلاً عالياً، عليه كتبوش لونه أصفر، تتدنى منه شراريب،
وأيضاً وسائد، وحشاياء، وستائر، ودواة، وعشرون ذراع حرير
شاهاني لا يوجد مثيله، وصار رئيس الديوان يقلب يديه من
الدشة، وكأن عبد أرازق أدرك ما يحول في خاطره فابتسم
ابتسامة هادئة حيرت لرجل وأسكنه، وحملته ياجي معه، فمن
بعد الخلاقة للعوام والجمعيدي والعبد وأوباش الخلق، واملاء
حجره بالعمل، يصير جسيماً للسلطان؟ وهكذا يبال ما لم يبله الرجل
حوال عمره، وعندما أبحره عبد الرارق أنه مسافر مع اسلطان إلى
افنيوم تعاطمت حسرته، فبعد عشرين سنة من خدمة السلاطين لم
يبله شرف كهذا، أما عبد الرارق فما هو بمضي مع الحاشية، وربما
سئم مولانا بدعاه إلى مسامرتة، وربما أعجبه فيصير من حاصته،
عبدئذ يلجأ إليه، ويقف عبد بانه يقضي له حاجة، ويكون في نظره
اساناً محقراً صائفاً لا قيمة له، من بعد أن كان لا يجرؤ لعد الرارق
الحلم في أن يخلق له، برقت عيبه وهو يرتدي الخلعة العرو السمر،

رأسه خلف عينييه الدم، فض يحمسه، وقام الى عرفته وأرسل في
طلب عم الدين، فأحصروه مشكوكاً في الحديد وصاح فيه، تفعل ما
فعلت بلحقي؟! وبعد أن بهدلوه أحر بهذلة أمر مولانا فقطعت
رأسه.. غير أن الأيام توالى، ولحية السلطان تعظم ولا تجد من
يهداها، وعرضوا عليه عدة خلاقي، فلم يعجبه أحد، حتى دخل عليه
محمد المهتار، وقال انه يعرف جلبي صغير، فقير، باحبة الحسينية.
بدعي عبد الرارق، لكنه يخلق مليحاً، فقال مولانا: لا تاتج.
أحضره لنا حتى مجربه.

انقص عليّ الخدم، ففعلوني، وهرشوني باللوف العظيم، أبدوأ
بفرراً ورفراً، غير أي لم أدل، فقد كنت مشغولاً بما جرى لي، وما
دبه محمد المهتار ونحني الطريق، السعد والجاه بين يديك، وطلوع
بجملك أو انحساره أمام عينييك، والمطلوب مني سيط ويسير وهو أد
أنس الخلاقة الأولى اتقاناً عظيماً، عبدئذ من يدري، ربما أعطاني مائة
دينار، أو.. أو.. مائتين.. ظلمت الى قاعة صغيرة، رحامها بسطع،
وسائرها تلعب، في الأركان الأربعة يقف حراس يحمقون الى
رحمت، ثم حثت، ثم نظرت من الطاقة الضيقة، وحف قلبي، المراءع
فسبح لا أول له ولا آخر، ونحت كانت البيوت والمآذن، وانصار
والصيف عمل عمله، البلدة كلها ملقاة تحت، والريب أنبي شعلت
بسي، محاولاً أن أحدد في أي المواقع أسكن؟ وكيف تبدو القلعة

وكاد الرجل أن يصيح غيظاً لما أضاء عند الرارق من هدوء مكانه
تعود على هذا، غير أن رئيس الديوان هناك في صوت حفيظ.

* * *

عندما تهمل الركب أمام متحدر العطار.. بدا ما مر من أيام
بعيداً قاصياً، بل أنني - ساءلت نفسي. هل توديت يوماً بالفلام
عند الرارق. وهل هذا الرصيف أكل حتماً من لحمي طوال جنوبي
فوقه، وهل حقاً مر في يوم فرحت فيه فرحاً مهولاً لأن واحد من
خدام القلعة خلق عدي، وإذا جاءني باجر صبعه، أو عطار، أو
حال، أكرر عليه بسبب أو من غير سبب أن خادماً من خدام القلعة
حق عدي قبله راح من من عمري في هذا - وعندما تحرك
الركب مرة ثانية، ارتفعت الأصوات بالدعاء، أهل الشارع لم
يعرفوني، فعماني عالية. وحنينة مولاي الحمراء ترق على كتفي،
ومن أين لهم أن يعرفوني، وفجأة ارتفعت، أفق يا عند الرارق يا
جنبي، ربما أب في حلم، لكن استعرك ربي، هل جرؤت يوماً على
الحلم بمثل هذا، في السكة إلى الصبوم، كانت معه السلطان تحط
كثيراً، أجلس بجوار رجاله، الأمير الداودار الكبير، بين وبينه
مقدار دراع واحدة، التزمت الصمت حتى لا أتنفخ بلفظ قد يقع
من قلوبهم موقفاً غير حسن، خاصة كلهم يعرفون أصلي، بل اني
حافظت على سكاتي وحر كافي تميت لو أن لي عينين أرى بها نفسي
من الخارج أقرب أفعالي وهل هي لا ثقة أم غير لا ثقة، بل أحرحت
أنعامي حذر، ثلاً ترعجهم، تطلعت إلى أرباب المملكة وحلة

السيف، وفرسان الإسلام، أحاول التعرف عليهم، يقول مولانا
محاضداً هذا المحور الأعور، يا شاربك. أعرف أن هذا هو من يلقي
الرعب في قلوب العامة، ولو ذكر اسمه لسقطت الحامل اد تسمعه.
عندما يبدو موكبه ويسمع الناس أنه أزعج الركوب والنزول من
القلعة ليشق من المدينة، يلقون دكاكينهم، يلمون حاجاتهم، فهو
قاس لا يرحم، هو رأى من يجترع بيع الخبز الشراء وجدته رفقاً
في نفسه، يتكلم أمام سدا ومولانا يتواضع إن لم يكن مسكة
ومدلة، حرت في أمره، حتى كدت أقول أنه غير ما سمع عنه، هل
يتصور العامة أن شاربك أو شرية الأعور كما يسمونه يركع لخلق،
سحرت منهم ولعنهم في نفسي، من يدري، ربما كان هذا الشيخ
الرمال - ضارب الرمل - والجالس بجواري يقرأ فكري ويطلع
على سري، عندئذ يعرف أنني أليس السوق لأنهم قالوا ما قالوه عن
واحد من رجال مولانا. تعرفت أيضاً إلى الأمير ططق باي،
وقاصي القصة، وهو شيخ مهيب، دقه عظمة يعوج منها المسك
والصبر، والله أهالي الناحية لهاء مجابين، قتل الله الصعة، يتقولون
على الصالحين.. شهر كامنة ظلوا يرددون فيها أنه برطل عي
السلطان برطبلاً مهولاً بقدر بشرب الألوف من اندباير حتى يعبه
قاصياً للعصاة، اعتدلت في حلسي، وكلما مضى الزمان رأيت فيهم
أناساً لطافاً خفافاً يتحدثون مثلي.. بل يمزحون، يسخرون،
ويتناغشون أوغل الليل والهواء لا يش ولا ينش، لاحظت أن
الأمير المقرري نظر إليّ مرة اثر مرة، حفصت بعري، صحك، قال

لؤلؤي لسان فصيح، الحبي ساكت كالخحر ألس عنده ما يهيج
 سولانا حاصة وأن الجلية يهرفون من الحكايات بما لا أول له ولا
 آخر، أحاطني العيون، الآذان تشطر ما أفوله، ارتج علي، غير أبي
 تداركت نفسي، قلت وعيائ نظرون، الأدب واجب في حصره
 الملوك، صاح أكثر من واحد، الله.. الله.. وفجأة مال سلطان
 المسلمين وحامي البيت، ولا حظ أن لحيته تدو أكثر مهابة وحساً
 وحالاً عما رأيته أول يوم، يا لعجب صوته كأي صوت، وبطرائه،
 سكتته وحركاته، رحت أتملى وأسمع، طاف خاطر خبيث يذهي
 طرده كما تطرد ناموسة ثقيلة الظل، كأي سمع انصوب، شح
 عجوز يبيع السبوسة تحت باب الفتوح إذ يراه لقوم مقلداً
 يتزاحمون حوله، يقف متشامخاً في نفسه، متعاطفاً في روحه، يقول
 بصوت عدل غليظ كأنه ينظر سمة.. بالدور.. بالدور.. ارتفعت
 من المقارنة، لعت نكري، الأديم التي رأيت فيها دمع السبوسة،
 غير أن ما قاله مولاي انزل برداً وسلاماً على قلبي، عمر صدري
 راحة، مليح.. مليح، على من تلقيت علمك يا جلي؟ قلب بمشي
 الأدب.. على يد أشهر المربين في مصر، المعلم اليتوني رحمه الله
 وأحسن إليه، صبح المجلس بالصحت، همر العرق من رأسي وإبطي
 وعنتي وسائر جسمي، هل أخطأت، أذنبت، أي جرم ارتكبت؟
 غير أن قاضي القضاة قال: هذا علمه يا مولانا.. وعندما تكلم
 الحبي متودداً متأدماً، وهذا بسبب ذكر اسمي.. يا عدم هل رجل في
 مثل ورعه يبرطل على.. وعلى من.. على السلطان.. أحنيت

جسمي.. مليح.. مليح.. سألني عن أي الأماكن كنت أسكن..
 فأحنته احابة شاعة، وسألني عن حال الناس في الخط، وما يمولونه
 ويصفونه من كلام، وأشهر الحوادث التي كثر الحديث عنها..؟
 فحكيت له عن المرأة التي ولدت طفلاً له رأس، أسدى تعبه،
 استعاد بالله.. قال كيف لم ير ذلك..؟ وراح يستمر عن هيئة
 المخلوق وصعاته ومطره..؟ وأنا أصف وصفاً شامعاً جامعاً وكأي
 رأيت العلام بمشي.. سعاد بالله، وقال الأمير شريك أنه سمع مثل
 هذا في الهند. الليل فوقنا يوغل في العتمة، ثأوب مولانا لأول مرة
 ورأيت أسانه، اغمض عينيه.. رأيت جفنيه عبطتين منتفتحتين،
 فحاة فتحها وقال أنت جني مسيح ابتل قلبي ماء الورد، عرو
 صدري في روح المبع، قمت واقفاً قملت الأرض بين يديه، لم
 يمض بكثير حتى فص مولانا مجله، انصرف الجمع كله، أقبل عي
 بعض الأمراء يهنؤني، السلطان قال عي جلي مليح أثو علي،
 كدت أطير كعود اليسمين وأتميل طرباً غير أنني أهديت خجلاً
 وتواضاً زادهم ثناء علي، في غيقتي لم أتم، وبعد عودتنا إذا قابلت
 واحداً من الحاشية يوفعي ويسرك بي، قال السلطان أنت جلي
 مليح، وأحبرني الشيخ أحمد صارب لرمل، هذا القول له مثل
 واحد في التاريخ، عندما امتدح المصور قلاوون في سالف العصور
 طعام حادمه، وكثيراً ما يقال لي الأمير شريك معه، أنح في عيسه
 رغبة في أن أحلق له، لكن من يجرؤ على طلب هذا من جلي
 السلطان، لو أحبرت لسلطان لأصاح برأسه، من يدري، ربي يربد

استلقي اله ثم يورني لأقطع رقعة مولانا عندما يسلمها لي وتنصح
 تحت رحمة موسي، أرسلت في طلب أمي، فتحت دراعيتها وأرادت
 أن تضميني في أحضانها قلت يا ولة نحن الآن أصحاب جاه،
 اهبطي.. هيا ستأكلين اللحم كثر يوم، وتسعين الحرير واندبياج،
 بسطت كميها، دعت لي، في المساء رحت أرضها وهي تأكل اللحم،
 بعد أن صرفت الخدم، حارت بين القلي والحمر، وأصاف المشموم
 والمواخير. تذكرت أيامي الأولى في القلعة، كيف إذا جاءني
 الأكل لا أترك أثراً من لوزة أو قطعة من لحم، الخبر ثم أقربه
 مدة طوبله، ولما آلتني طبي عايجي كبير الأطباء نفسه، مرتني من
 اللحم كبير، لن يؤاحدي أحد، ساعات أقول أن لأكل يكفي حسبي
 ومحمد عند العزيز واسماعيل وسائر أصحابي في الحسينية، إذ
 نذكرهم، يسمت في نفسي صبو. ما ولي من أيام يبدو قريباً، كال
 السين وجه له عيسان كبيرتان تعلقان إلي في سعرة.. إسان
 موجود في مكان لا أعلمه، يد ضخمة تمتد لتلحقني وترميني من كل
 هذا البع، ادا ما رأيتني أمي تقول لي، أعذك الله وأعطاك. تمتع
 يا ولدي. تمتع أني أر أستريح، مرة طلست مي بكال نصف
 ديب، بسطت يدي، من أين؟ قالت إنها تعرف سنأ ملحقة وفقيرة
 رسة سقاء ناحية سبدي اسبومي، ما أتكسه لم يكن يقيم أودى.
 ويسد رمقي، وإذا ما رأيت امرأة في الطريق اهت، وسيل ريعي.
 لكنني أدوس هذا كله، ولم أقرب امرأة قط..

وفي السوق نعلو نداءات الصبيان مشيرين إلى النساء فوق

المصاطب، أنظر يا سيد، ليس كل ما استدار جوزة، ولا كل ما
 استطلل موزة، ولا كل ما أحمر لحمه، ويتحسس عبد الرارق صدور
 البنات الصغيرات.. يتأكد من نفوذه واستدارته، كذا نومة الجلد
 وقاسك الردف، وعن التاجر الرقيق التركي أن يسأله عن السر
 الذي يجعله يتحير الصغيرات دوماً، وكان قد استوثق من صحة
 التاجر، وصار يسهل له الكثير من شئونه لدى الحكام، وقال عبد
 الرازق، انه يذكره بسين تمنى وناهن فيها، غير انه في المرة
 الأخيرة انتابه غضب، فقد تدافع حوله سفله القوم، وصاروا
 يقدمون له اوراق، والصحائف، يقتصي بعض حاجتهم.. راحو
 يصحون، يزعمون، وبأيديهم في وجهه بلوحون، مما حير التاجر
 التركي، وأعجزه فهم ذلك.

* * *

هدأني أمي، قالت أنت في أعينهم صاحب ثروة وجاء،
 عضضت شفتي، صممت يدي، إلى متى يلاحقوني، عبد الرارق كان
 ثم.. عبد الرازق أصله و... ما ذنبي؟.. لأنني كنت واحداً من
 أهالي الخط، أليس الله يعطيني من يشاء ويحبب رفره عن يشاء؟
 تمنيت لو أن الطبيب عنده دواء، أشربه فأنتنى ما مر بي، لا أسمع
 إلا من يقول، عبد الرارق ولد جدياً للسلطان، مقصه، وموسه، لم
 يلامسا غير شعر السلطان، قمت أروح وأجيء، أحلك ظهري
 بيدي، انحلت لحيتي بأصابعي، قالت أمي لماذا لا تأخذ احسنة في

حمايتك؟ نظرت اليها، قالت: أم يكن عم الدين الحلبي السابق متحدثاً عنها، تعهد أنت أمام المحتسب عن الحسينية.. مقابل ما يريد من مال وتجمع من الخط ما تشاء، وأهله كلهم تجار موسرون، نظرت اليها مرة أخرى مصيفاً عني، سندد ما عليك.. ثم تأخذ ما بيصص، وانت تعرف أهالي الخط كلهم، وهكذا نصبح معهم وجهاً لوجه، قلت والله بها مكررة. لكن المحتسب لا يتنجح الأحياء هكذا، لا بد من برطيل، قالت معك ما يكفي أدفع له.. ثم يرجع لك كل ما أمنت، تمتعت بمعه في، تركت القنعة عارقه في صبح الظهيرة. ووجه الصف الذي له بون التراب. سألي الساعي إلى أين؟ قلب إلى متولي حبة القاهرة، قاضياً، وشيخاً، الزيني بركات بن موسى

بدأ المنادي يقرع طبلته منذ تجاوزته باب الفتوح، يا أهالي الحسينية، صار عم الدين الرومي غريباً عن الخط، وليس متحدث عنه، وم يعد في حمايته، وعو كل من يديه مظلمة أو شكوى، كل من عليه من متأخر سلطان وعلى المتحاصمين، وأرباب انقضا والمنازعات، أن يتوجهوا في كل حالهم ومأثم إلى حامي الخط، والمتحدث عنه، وحاميه أمام المحتسب وكرسي السطة، المعلم عبد الرازق جلبي السلطان، وشيخ الجلسة في كافة اتحاد بر مصر..

أخبرني الركيدار أنه عندما شق في الحسينية اسمعه التجار

الكلام اسكي.. وصاروا يقولون عليه، اذا كان سيدك سي اصله وفصله فحن لا تنسى.. وتعدوه، هاشوا عليه بعصيم.. زاطوا عليه في كلامهم، أحدثني رجعة، أكل قلبي العبط، ارتدبت ثيبي، تحلفت بمأمتي، ركبت بغلتي، سألي الركيدار عن المقصد، إلى الحسينية، أبدى جزعاً وفزعاً، لم أبال، صحت فيه فجري أمامي، تجاوزت باب النصر، طلعت على حياشيمي روائح لحي، انقص قلبي كأن غيري غاش فيه، ليس أنا، مررت على دكان المطار، رمت السلام قام واقفا، اهترت سحته الطويلة.. سلم علي، قدم إلي مقعده، نسمت في وجهه، أستمع إليه لم أسك يا عم محمود، ارتاح وجه الرجل، هكذا ناس لحي، سحقوا علي، ذكروني بالكلام اسكي لأني ردت درهم على مجعول الدكان، لكن مجرد أن أواجههم، أكاشمهم، يحللون ويتلعثمون، أما لو واجهني عبي الحس والصوت.. سأعرفه، أمر رجالي أن يذهبوا به إلى الحب، أمام محل العطار راح الركيدار يصيح في السوق، حامي الخط والمتحدث عنه مزل بمعه ليسمع ويرى حتى لا يدع العرصة للمشوشين، وألا يكون لواحد من العدد مظلمة، جاؤوا من الحارات والحوح والأرقة فأما أعرف كيف تسري الاحارها، التفت إلى محمود العطار، الكلام لن يبدأ إلا بعد ريارتي لسبدي السيومي، اشتقت اليه، حول الجامع رأيت كثيراً من الوجوه التي أعرفها، هررت رأسي منطماً، بدوا في دهشة عظيمة عليهم هيبة، مسد طلوعي القلمة لم يروى، سألتهم عما هم، بعد صمت تعالت الاصوات فجأة، صاح محمود العطار يطلب

منهم الاحتشام، واحترام المقام، وأن يتكلم واحد عما يريد الكل أن يتحدثوا فيه فقالوا أنت عارف يا معلم محمود. لقد راد العروة درهما وليس لنا طاقة على هذا صاحبت عحور، رجالي طسوا منها دفع أجره دكانها مقدما، هي لا تفلك ما تدعه، سيطرودنها غدا، زعقت.. لن أرى هذا يا عمة.. كم الایجار.. قلت نصف أشرفي، صرخت يدي في كيس، أعطيتها نصف الاشرفي، ضجت المرأة بالدعاء، لتفت فجأة وصحنت.. الدرهم الزيادة لا بد منه لأن المطلوب مني للمحتسب كثير، لو ملكت المطلوب لشدت عنهم هذا كله، زعقت.. هل شوش عليكم أحد منذ أخذت الحسينية في حياقي؟ أطرقوا مقدار درجة، قال شاب لا أذكره، المالك حطوا شاة من أمام محمد الخصري.. ولا يعرف لها خبر، التفت اليهم تكاثر الجمع، تعاظم العدد، صحت عليهم، اعدروني ياباس، هؤلاء ممالك مولانا ماذا أقول لهم.. هل أما عبد الرازق ابن الحسينية أقف فسادهم، لرموا الصمت، يرغم هذا كنه ساكم الوالي، وأعرف من هم بالوسط وأين راحوا بها، ثم قلت: من عندكم حطقت امرأة واحد.. من الاحياء الاخرى هل تعرفون كم؟ وكم من العباءم ترمع من فوق الرؤوس.. وكم من الغلمان ارديطاردون، كثير.. كثير. كثير يا جماعة. أتم في نعمة.. سكتوا هيبه.. وقالوا إهم يلاقون صوبية عظمى في مقابلتي، عندك صحت، أحضروا إلي زین الدين الجرار، وكان شابا عتيا قويا، حسه طالع دائما في الطريق، يرهه الكثير، سم علي مترددا.. قلت: هل يفترض واحد على هذا؟

سكتوا.. أنت من اليوم مسئول أمامي وأمام هؤلاء والأهم من هذا كله أمام الله رب العالمين أن توصل الي كل الشكاوي والمطالب، اعدروني.. كما نعرفون أنا حلي السلطان، ومولانا لا يخلو عليه مي، بدا على وجوههم الرهبة، ريس الجرار مفتوح لعم، لا يصدق ما سمعه، اقترب مني الركدار، همس قلت: لا تلوموني يا أهلي بعد قليل يصحو مولانا ولا بد من طلوعي القلعة، نزل الصمت، اندفع أمامي زین الدين يفتح الطريق مناسا اركدار بصره، انعطيت يفتي فجأة انطلقت زغرودة من الطيقان، ابتمت، تكاثف جمع النساء والحريم وانبعان أمام باب الفتوح، استدار ريس الدين، رعى عليهم، أن يرجعوا، عاد يجري بجواري. صرخت يدي في كيس وبمحتة عشرة دنانير ليشتري بصره ثياب تليق برجلي، أمرته أن يطلع القلعة في اصباح لشكلم، تركته مدهولا، سائر فتوات القاهرة يرهونه، وعدا يطلع عدي وأرتب معه الأمور كلها، فلا أقتن في صحو أو مام.

* * *

وكان الامير كرتباي شديد الحنق على الامير شاربك الاعور، فالتاني أكثر قربا منه لدى السلطان، وحصانه يلي حصار السلطان نفسه.. ورأى كرتباي أن يتخلص منه ويرديه موارد التهلكة، وبعد طول تمكير، رأى له أن يتكلم مع عبد الرازق الجليبي، فقد علا مجده.. وسطع سعده، وقرب وعده، وصار السلطان يوكله في

كثير من الامور يحمل فيها ويربط ، حتى أن أرباب الحاجات ما
قصدوا الا بابه.

* * *

وقد أصغيت اليه ، العطر في الهواء .. حلو ، النافورة ترمي
ماءها الى أعلى ، لا صوت من الطريق عندنا ، وأعمدة الرخام
الساقية تقف باردة تحمل السقف المرحرف الجميل بمشوح الخشب .
ما لبس له مثير ولا في لقلعة ، عندما سأله عن هذا التعداد
الرائع ، بدا مهوتا ، فهو يجادلني في عظام الأمور ، وأنا أؤدي
اهتامي بشيء حقير الشأن ، ارتاع وحاف .. ربما ظن أنني سأبلغ
شاركك عدد يتكس وينتهي ، رفعت نظري فوجدته شاحصا الي ،
عندئذ قلت : فجأة ، ما الذي أنا له من هذا ؟ قال لك ما تطلب ،
أعطيك من الدباير والجواري ما تشتهي ، ضحك ضحكة حصفة ، لم
يلن وجهي ، قلت في صوته خفيض ، أكون متوباً لحسة القاهرة ،
أصغر وجهه ، رست على عيبه حيرة ، قال هذا من السلطان . أشرت
باصبعي ، ترسل أعونك فيضطرب الحال في السوق .. وتشيع من
الريبي ما يجعلك تطع الى القلعة وتحير السلطان أن حال المسلمين
قد اضطرب وصاعت حقوقهم . ولا مهر من عزل الريبي . سألتك
من يحمل مكانه . تقول لا يوجد غير الجليلي . فلباس بلهج بذكره
وطيب سيرته ، ولك أن تعلم حثة شارك الأعور ثلاثة أيام كاسية
على ناب رويلا

* * *

١٤٨

وبرل فوق الناس صمت حتى لتحس حركة الجبين في بطن أمه ،
تحيروا في أمور الرمان ، كيف تلف المشقة حول عنق هذا الذي
قارب ذا القربى في جهروته وعنوانه ، ها هو يملق رأسه كأني
اعرابي مارق ، أو لص سارق ، فيما يطوف المددود في أحياء القاهرة
(اندية) يصيحون على اللثم الذي أعد ملموا حمية ليحلق حامي
الحرمين وسيد الحرين من فوق عرشه ، لكن اللثم شارك أحد قبل
ان يأخذ .

* * *

وقال ان الناس تحبني وثق بي ، والوالي لا يجد غيري أتولى
الحسبة ، وأضمن أموال السلطنة ، واستقر بأحوال الخلق ، تمت
فضلت الارض بين يديه ، سألت دموعي ورجوته اعطائي ما أثقل
المسؤولية وما أقطع المهمة على قضي ، ويكفي القيام بواجبي بلا
زيادة ولا نقصان ، فما الذي يطمح فيه اسار أكثر من كونه جلياً
للسلطان ، هنا صرب مولاي يديه ببعضها .. قال : عجيب .. والله
عجيب . أسأول من أعرض عليه مصباً فيمتنع ، وحولي يقتتلون
ويتصارعون ، يا جلي .. أنت متولي الحسة واتحدث عنها أمامي ،
فاحسبت وقيلت الارض ، لكن لي رجاء يا مولاي . قال ما هو . ألا
تحرمي من كوفي جلبيا .

* * *

ولمجت السنة الناس في الحلات والأسواق ، ودعوا للمحسب

الجديد، فقد برل موكه تدق أمامه الطبول، وتفتح الزمور، وصار ينفخ بنفسه ويصيح تسمية الاجساد.. ولسيوسك، والبيض، والخضراوات، وتحدث الناس في البيوت عن رقة طبعه، ولين حنقه.. وطول ياله في الاستماع لى الشكاوى حتى عندما صاح ارفعاع عليه في الحسنة، واتكوا عليه بالكلام الشعب، فقد ظل هادئاً، لا يرد على اهاناتهم، ولو شاء لقطع رقابهم.

* * *

اخبرني الأمير ابق أن المدينة لم تهدأ كبر هي الآن، شكرته، انسى علي ومصى، هكذا تخاشيت كل منوش شيم، من عنده مظلمة فليقدمها الى نوابي، لم اُعلَى ابوابي. ما يهمهم؟ ان ما يريدون فونه وصل لي، واذا بت في مظلمة فالأمل لا ينتهي من عند مائة، في المساء طلعت أعلى طباق بالقلعة، الرندة على أشدها، الجوية وخم، السماء ررقاء. فالسبل لم يوغل بعد، رعى الحراس بالتحية، رحلت وجئت فوق اسطح، أروا الى القصب والمآذن، والعدر، كل هذا، أن متحدث عنه، قرضت طرف عاءتي، سمعت حسن رجل ورائي، الامير كرتاي الوالي سلم عليّ، وقال أن حسن مسيرتي وسستي جعلتا الكل راضا عني، صحيح هناك بعض الموعرين يروحون اليه وينمون علي.. سكت.. ثم قال: لكم من م لك ثم عليك.. أوامات برأسني ولم أرد، لمب الفار في عبي، وراءه أمر ما، بعد سكوت دام درجة، قال: ان الجمع بين وظيفتي المحتسب واخلي فيه ارهاق عبي، الحسبة لها مشاغلها التي لا تعد ولا تحصى، ضيفت عبي،

أبصأت جلته في الحديث. قال لو أعصني السلطان من وظيفتي كخلي، لكان هذا أحسن، فصحت فحاة. والله هذا ما كنت أفكر فيه، أيدي بشرى وهلا، قال أطلب منه ذلك، قلب سأفعل سوي، وبعد أن حلقب دقن السلطان، قلت أن الأمير كرتاي طلب مني كدا وكدا وأني أشك في مقاصده لجسام... صاقت عسا مولاي، ارتخت جفونه، علامة القصب العظيم، قال ماذا نظن يا جلبي؟ قلت استعبد بالله فلست عماماً، صاح عليّ صيحة مهوية رحسي فأنحيت اقل الأرض، قلت لا تؤاخذني مولاي رعا أرادوا ابعادي واحصار جلبي لا تعرفه ربما.. صاح السلطان. لا تكمل يا جلبي.. امن يا خلي، في المساء ساءني فاصد بحري ان كرتاي قطعوا رأسه في الصباح، وأن مولاي بطلني بعد المساء وهذا لأمر حطير، قلت سمعت وأطعت، عندما انصرف.. ذهبت الى أمي وقلت أنعرفين معنى هذا، نظرت الي مذهولة دخلت غرفتي.. ارخيت الستائر، انطلقت في فرحة، صرخت الجدار بيدي، رميت ثياني على الوسائد وصرت أدور في الحجرة طالما نازلا، لا أدري ما أفعله..

* * *

وقبل الغيب، نزل أمير مقدم ألف من القلعة، وعبر ميدان الرميلا في موكب له صفة، وانجه الى بست الأمير المعري حيث يمعم قصاد ملك السادقة. ينتظرون من عشرة ايام، اللحظة لتي نجح فيها مقايبة السلطان. وقد اركبهم الأمير، وعادهم في موكب عظيم. وكان المصايد حسة يرتدون الثياب لراهية، شعورهم طويلة

كالحریم، وجوهم حراء، وفي أثناء هذا كان الأمير يشك
الردداري بتأمل السلطان برقة.. ويكثر من الدوران حوله، ولحظ
السلطان هذا، فهو ذكي، لا تقوته شاردة ولا واردة، قال له ماذا
أك يا بردداري؟ قال لا تؤاحدي يا مولاي والله لا أحرؤ بنر
مولانا فيه، رتحف الرجل في ثيابه، وأثار إلى دقن مولانا، قال لها
هائشة، غير مرتنة، ليست مليحة، ولو رها القصاد الا جانب
لصارت فضيحة، تحسها مولانا وتحللها بأصابه.. عجيب..
عجيب.. عبد الرارق حلقها لي منذ ساعة.. أرخى الأمير يشك
عينيه.. قال يا مولاي يد عبد الرارق تلمت عاد يفيق إلى
خدمتك.. صاح السلطان.. كفى - كفى.. صار صوته هادرا فيه
غضب لو سلط على مدينة لعل أعاليها. أسافلها. ارتمش الأمير
يشك، وقمل الأرض.. صاح السلطان.. لن أقابل قصاد لسادفة.

وقائع حارة الطبلاوي

« مذكرة ايضاحية حول واقعة رقم ١٠٦ »

قسم الجبالية « القاهرة »

.. انه في يوم الاثنين، وفي التاسعة صباحاً، حضر إلى قسم الجبالية عدد خمس أشخاص، من سكان حارة الطلاوي، ثلاثة ذكور، ثلث اناث وبناتهم كالتالي:

(١) حسن اخندي متولي، موظف بإدارة مكافحة الدودة، قسم الفقس، وزارة الزراعة

(٢) فارس سعد (الشهير بأبي قورة) صاحب مقهى بالحسينية.

(٣) عويس يونس حراس بناحية كفر الرضاري.

(٤) شعبة لطفي حكيمة بمستشفى الأزهار النموذجية.

(٥) محاس حسن مدرسة ابتدائي، تعمل بمدرسة المحاسين الابتدائية.

وتولى حسن اخندي متولي الحديث نيابة عنهم، فأدلى بالبلاغ التالي..

« انه منذ ستة أيام قام دحروج النمرسي، اعتباراً من الساعة الواحدة صباحاً وحتى الساعة بدون انقطاع بحاطبة أهالي الحارة

مستخدماً يوقاً مما يستعمله شرطة المرور في الميادين والطرقات العامة، وسبب ازعاجاً للسكان، علماً بأنه يتدنى كلامه بعبارات بذيئة تسب أهالي الحارة كلهم، وتصفهم بأصح الألفاظ واتهمهم بعرض والشرف، ونتج عن هذا اطلاق راحة المرضى، والأضرار بصحة الحاج أحمد العتر تاجر الورق الذي يمالج منذ عامين بسبب 'عصانه، ولا زاد الحال، توجه اليه عدد من سكان الحارة وجيرانه القدامى، طلبوا منه الكف فردهم نصف، طالبهم بعمل ما في وسعهم، وكرر مرات أنه حر، ولا يعنيه أحد ولا يوجد نص قانوني يعاقبه لأن الجهار الذي يستخدمه لا يحصص للقعود المفروضة على استعمال مكبرات الصوت الكهربائية وذكر أرقام مواد ونصوص قانونية ثم حدثهم عن ماضيه الطويل أنه عمل جندياً في الخدمة السرية لقوات الأمن العام وأعلن (هناك شهود على ما قاله). انه خرب بيوتاً عامرة خلال خدمته، وأن أحد أقاربه يعمل الآن بمصب هام للعناية، ويقوم بتزريق كافة الشكاوي لمسله صده بعد اطلاعه عليها واحدة، واحدة، ثم أغلق الباب نصف، وفي الواحدة صباحاً بدأ حديثه البيومي، فدف من حاووه واحداً واحداً بالفاظ بذيئة، وعبارات غريبة، عندئذ أطل بعض المسنين، صاحوا عليه راجين السكوت، واحترام الحوار فالسي عليه الصلاة والسلام أوصى على سابع جار، وها زاد في بذاته وسبهم بالفاظ تحدى رجوة كل منهم، وأظنت عويشة امرأته لأون مرة، وأعلت وقولها لمصاد لكل من تسول لها نصها التهمع عليها، أو على زوجها وقالت أنها

صاحبت حريم الحارة والحي أربعين عاماً، جمعت لزوجها دحروج معلومات تكفي لمد كل بيت بالجسس، ثم ذكرت أمثلة، وسبب وقوع مشاجرات بين أفراد عائلات لم يسمع لهم حس من قبل، مما اضطر السكان بعد ستة أيام من العذاب المتصل النجوى إلى الشرطة، وأنهى حس أمدي أقواله مصالماً لأمن العام بالتدخل لحماية الأهالي من المذكور وامراته غويشة، فاليوت العامة تكاد تحرب...

ومن ناحية أخرى أفاد مسعد أمدي القاطن أسفل المذكور، أنه سمع مكبر الصوت أول ليلة وفيل فيه «آلو.. واحد.. إثنان.. ثلاثة إلخ» وتلاوه السلسلة عدة مرات، وبعض آيات الذكر الحكيم، عندئذ طلع إلى دحروج ظناً منه أن مصالماً وقع، مما استدعى تجربة مكبر الصوت في هذه الساعة لتأخرة تمهداً لتلاوة القرآن في النوم التالي، وعندما طرق الباب فتحت غويشة وقالت بدون مقدمات «أحيراً حانت الساعة، وم ندع فرصة لمسعد أمدي كي يستمر عن أي ساعة تقصد» إما أكملت «دحروج سيحقق ما انتوى قل لجيرانك، وجيران جيرالك.. أخيراً.. حانت الساعة ثم أغلقت الباب بنفسه، وأقسم مسعد أفندي على صحة ما حدث بفتح المصحف على سورة ياسين، ووضعه على عييه وأقسم يمينا.

كما قدم اندعو فارس الشهير بأبي قورة، شريطاً سجل عليه بعض من أقوال المذكور عن طريق المكبر، «تم تفريع محتويات الشريط» واستعان بجهاز تسجيل ماركة جروندج لاداعة أعالي أم كشتوم على

رئائس لمقهي، وأفاد الجميع بأن الحارة لم تعرف الفلاقل من قبل، وتعد من أهدأ الحارات وأقلها في عدد المشاعيات والحوادث نادرة بها، وسكانها مسالمون لا يميلون إلى ارتعاج الغير، ويحترمون العواين والجوار الذي لا يقل بالسنة لأحدثهم عن عشرين عاماً، وأسائها التلاميذ متعوهون، ومنذ عشر سنوات جاء ترتيب سيد ابن الحاج نصيف الثالث على شهادة الإعدادية (وطالبوا بإجراء بحوث ومحريات تثبت هذا) والآن لا يستطيع الطلبة استدكاراً بسب أعمال المذكور دحروج وامراته غويشة.

«ملحق ١»

«محتويات شريط مسجل عليه بعض أقوال المذكور، ولم ينصح في هذه السجلات، هل تحت ليلا أو نهاراً، ولم يعرف تاريخ كل منها، يرجاء وضع ذلك في الاعتبار».

(١).. لا اذا اطلعتكم بأنفسكم، ورأيتم ما رأيتم، وهذا مستحيل وم يتوفر لاسان قلبي، أدرككم هذا بالمهم العديدة الي عملت بها، أنقست كلاً منها، قصبت بها رماً، أدرككم بأحر أعالي، خدمتي خمسة عشر سنة في صفوف الخدمة السرية بالأمن العام، تقني بين جميع المديرات والمراكز والفري، سري الى بعض بلاد العالم في مهام حسنة، لن أحدث عن تفاصيلها الآن ولكن سيحين الوقت، سدهلون دهنلاً عظيماً ومولون كيف عيش نساء أكثر من ثلاثين

عاماً تواحدت بينكم، هل شعرتُم بي، هل عرفتمُ أمراً واحداً عني هل سمعتموني أتحدث عن أحد بما لا يليق. طال صمتي والآن بكسي قول ما في قلبي وعقلي، ستحدون كلامي شيئاً، العصر سيصو به مؤقتاً، لكنهم في النهاية سوجهون إليّ شكراً، لأنني قومت حياتهم وأظهرت ما تعرفونه ولكم تحاهلون، لكن العذر حق لكم يا أهالي الحارة الساكنين، من لديه خبرة عمر مثلي، من أصلك يواطن الأمور، من أدرك الحقائق الخفية مثلي؟.

(٢).. يا معلم يونس، والله أرثي لك، سخرت مني ولن أرد عليك حدها مني نصيحة، أب لا أحب الشجار، ولا الوقوع في مشاكل. طول عمري لم أقع في مشكلة، لم أقدم كمتهم إلى أي مسئول، لأنني من رمن طيب، زمن حلو، زمن عائق، رائق. غير زمانكم الموحل، الأعبر، لكنني سأقوم الموح فيه، أدبر أموره أوحيه، يا معلم يونس، أنا لم أفصحك لكنني أنهك إلى ما عاب علك، طسماً تعرف دكان المعلم ماهر المحمد في بيت القاضي، كلنا، كل أهالي حارة الفتر هذه كلنا نعرف يا معلم.. من يدخل بيتك بقرطاس العاكهة كل أحد وأربعاء، أنت تحرج حوالي العائنة ويستلم مكانك في الثانية عشر. اعيون تحفظ منظره بالجلد الأبيض. محوتم الذهب والصلل الني، الحارة كلها تعرف ولا أحد يجبرك، لماذا، لأن، سكانها عندهم ما بيكفيهم.. و

(صجة، تصفيق، أشياء تنسقط، أصوات...)

(٣).. قبل أي كلام، انتبه يا حسن أقدي، يا راجح يا دودة، أنا لا يعوتني شيء أبداً. ما من نفس رائد لديكم إلا أحصيته، ما من همسة إلا وترجف طسة أدني هباء، ألا تعلمون أن حدي كان عدلاً كبيراً في الأزهر وأنه ترك بي مخطوطاً قديماً وعلمني كيف أستخدمه، فأعرف منه المستقبل الآتي وبهاية أعماركم، ألا تدركون أنني تلقيتُ أمراً بالحديث اليكم عن طريق هذا المخطوط، يمكنني أن أنبئ، كلاً منكم يوم يحين فيه أحله، ومن لديه هذه المقدرة لا يصب عنه دهانك إلى قسم الجبالية، نرعمك وهذا صدي، شكوني طلبت إبقاء اسمك سرّاً وهذا جين، العجيب أنكم جميعاً جبناء، هذه سمة بيتمة توحدهم بينكم، إذا خفت مني أنا الفقير الضعيف اندي باهر السعين فليدا لا تحشى الله حالتي وحالكم؟ بلعني ما قلته عني أعام مقهى السان ما جرحته به امرأتي غويشة، تهديدك بأقاربك في وزارة التموين، ماذا تظنهم فاعلين؟. أعلم يا حسن.. يا أهالي حارة لطيلوي الكرام، أن ابن حالة إمرأتي عويشة كوستابل ممتاز، ولا يقطع عن زيارته ويرجوني كثيراً أن أرد زيارته لدرحة أنني خجلت منه واعلموا أن علبة سجاثره تحت أمري - أسحب منها وقتاً أشء، وبكسي لا أستعين به قط على أعدائي، لأن أحوالي وأموري التي لن أبوح بها قط تخميني وتجمليتي..

(٤).. ما رأيك يا عويشة؟

«امرأة، الرأي لك يا دحروج

.. لن أرد عن ما قاله الحاج سنوسي بائع العطر..

« امرأة » وصفك أوصافاً دنيئة يا دحروج..

لن أحرب بيته يا غويشة، لن أذكر مصنع العطور الصغير
د حل شفته.. الحاج يهرب من الصرائب يا غويشة ومن التأمسات
الاجتاعبة، ويستخدم أولاداً صغاراً..

« امرأة » يا حبر.. والنبي لا أعرف هذا كله، تصور أنه يلف
عن صفوف الصليب في الحسب يمسح أيديهم بالعطر ويبيع زجاجات
صغيرة يقول عنها.. بركة من عند النبي، بركة من المدينة المنورة..

(٥).. يا أهالي الطلوي، يا مساكين، يا وجوه النقص، يا
أشقاء عندما أظهر حياتكم من الكذب، عندما أزيح عنكم العناق
والاصطراب، وأنظم أموركم بطريقي، سأرسل إله، وأعذبكم
أن تحكموا عليه، وتلقوه درسا..

(٦).. مثلاً، امرأة عمي بدوي حساس البهائم في الأسواق
تحدث دائماً عن أقاربها في مصلحة السكك الحديدية، والذي،
والثروات الطائلة دائماً تكلّمكم عن أهل روحها الأشقاء الذين هوا
نصيبه في الميراث، عم بدوي يرفع عليهم القصيدة تلو القصيدة، لهذا
ثمة ثروة ستأتيه يوماً، عندئذ تشتري است نعيمة بيتاً في مصر
الجديدة حوله حديثه، وتغلقه أثاثاً فاخراً وتنفارق الحارة القدرة،
وأهلها الأبحاس، يا أهالي الطلوي البلهاء، لأنني أعرف كل كبيرة
وصغيرة لأنني أعلم حياتكم، ما تظهرون وما تخبون، لهذا سأقول لكم

الحقيقة، الست نعيمة ابني تتعالى عيباً، تحدثنا من طرف أنفها، لا
أقارب لزوجها كما تقول، لها أخت صغيرة لا تدرّون عنها شيئاً
إسمها راجعه وتسكن بدروماً قديماً في حارة سيدي معار، زوجها
بائع حريسة مسحول، وحتى الرم الدقة، أقول أنه يبيع بطاطا فهو
يمتلك قرناً فوق عربة يد، راجعة تساعد في كسب الميش، هل
تدرّون كيف؟ عندما تتشاجر امرأة مع جاريتها تذهب إليها، تنحها
قروشاً قبيلة، أو، قطعة لحم في رعيق وتستعين بها، أحت السب
نعيمة لها محاصر عديدة في البولس وعندما تفل المشاجرت تحرق
السب ولطم الحدود وراء الموتى يا أهالي الطلوي، يا أكذب خلق
الله، في رماني السعيد الطبيب، وأمر نتم من رماني؟ أمثالكم لا يسمح
لهم بالعيش فيه. آه.. راح زماني الأحصر أيامه هيبات، في الليل
سمع الأعاني في المقاهي الدافئة، وشرب الرخميل والرفة، صلي
الفجر، في نفس هذه الحارة يرل الرجال يصبحون عن بعضهم، كل
مهم ينسب الآخر، وفي الليل الرائق تسمع القباقيب، والماء
والوصوء.. ثم يخرج جماعة إلى الحسب، وتقابل النهار بوجه سمعة
ونعوس راضية، في رماني رأيت الأمان داته، لا اسان يخاف على
مانه أو أولاده أو بيته، وكلما رأيت ما يجري بكم يدركي والله
رعب وبكسي ملازمكم حتى أقوم المعوج وأعيد السيرة الصافية هنا
في حارة الطلوي وليلحقنا باقي الدنيا، لن أسمح بكمرا ما قدمت
به الست نعيمة عندما زارت جاريتها أم سبير، وعندما دخلت لتعد
شياً، مدت يدها ودست ورقة نقدية قيمتها خمس وعشرون قرشاً في

صدرها، أأ الآن أدفع التهمة عن مجدي الابن الوحيد لست سهر
والمتهم ظلماً، المهم.. أني لى أطيل عليكم..

(٧) «أصوات مرتفعة» يا كلب،
يا... إذ... إذ

(٨) - أرجوك يا محمد أقندي ألا تتساءل ما وصلني وصل
وانتهيا، وأنا وثق أنك وحدك تعلم مقدار النقود التي تحسها،
العلوس القصية القديمة، القصة الحقيقية، فيه القرش والخمسة
فروش، والشررة، أعرف عدد غلب الصمغ المصقوفة في مراك،
وهواستك ليلة الجمعة عندما تفرغ العذب من محتوياتها، وتشيء
أكواماً من لنقود، تعير أشكالها كما تشاء، ثم تغسل النقود كلها في
طش محاس كثير ثم تمام هائلاً، بسب هذه القطع من العمله
والنقود الأخرى انني س أذكر مكانها لم تتزوج، ذاب عمرك في
عملك الحقيق، كاتب ماحكمة الشرعة، لا يهمني مصادر دخلك من
الأموال، لكن أذكرك بما فعلته انت نعيمة عندما سرقت مبلغاً
تافهاً من أم سهر، تعال سعت عن السب معاً، ثم دعني أقل لك
كيف نفع وقوع هذا..

(٩) - يا ولد يا جابر، يا سعيد، زمانكما أجرب، لم تذوقا طعم
النساء، لم تستمعا بأى شيء، لو بيدي لحررت لكما جوارى سهر
تحرران بها إلى رمي الأول، فيه عرف الابتكار الحميميات، رأيا
الحياء على حقيقته، دق المنة، الأبوثة لريانة، كل ما تالانه وقفه
بلا جدوى أمام مدخل الحارة، أصعنا إلى..

(١٠) وأثناء قيام السيدة لواحظ..

(١١) - أحمد العطار الشاب النعى الذي يركب الكبير قبل
الصغير الفائح لرجولة، هيه.. كنه رمى مائع، لا يعرف فيه الرجل
من الأذى، فالقلب معدول، والظاهر باطن، ولا حول ولا قوة إلا
بأله العبي..

بعض ابواقائع..

.. كل ما قاله دحروج، كنيه عبد المقصود أقندي، لديه خبرة
عمر في كتابة العرائض والشكاوى، يعرف المدخل المناسب لكل
شخصية ودي منصب ما يجب قوله، وما لا يقال، ذكر ما قيل في
حق امرأته وما يسيء إلى فوقية ابنته التي دخلت سن الزواج، ما
سبغت نظر المسؤولين بوراره الداحلية بالذات هذا المطلب
المحيب الذي وجهه المدعو دحروج إلى الأهالي، ضرورة تعديل
أوقات نومهم بحيث يأوي الجميع إلى أسرته في تمام الرابعة والنصف
بعد ظهر كل يوم، مع مرعاة ظروف الذين يعملون في نفس الفترة،
ثم يوقفهم دحروج عن طريق مكر الصوت ليتحدث إليهم، وينظم
أمرهم، لم يكتف بهذا بل منح الأهالي مهنة قدرها ثلاثة أيام
يتحولون فيها من نظام إلى نظام، يعيرون عاداتهم، عبد المقصود
أقندي سطر خطاً نفيلاً نالمداد الأحمر تحت حديث لدحروج قال
فيه « منذ الآن حارة الطلاوي لها ناموس غير النواميس »

لأن يضيق عند المقصود أفندي، اضطر إلى ذكر أقوال
دخروج حول امرأته وجيدة، سيفصح نفسه، لكن من الضروري
حداً لاثبات إدأها التهمة الوحيدة الواضحة التي يمكن أن يعاقب
عليها طبقاً للقانون، يتملعل عند المقصود أفندي إذ تنحيل تهاوس
الساء فوق السلام حول زوجته «المرأة جنت على كبر» تؤكد
أخرى أها تعرف ما قاله دخروج من قبل وسكتت طويلا حتى لا
تهش عرض جارة قديمة، ما يضمن قليلا أن دخروج حذر كل
إنسان، رجل أو امرأة، من تناول مضمون حديثه بالزيادة أو
التشويش، لكن هل يكفي هذا لربط الألسه، قام، محس الأرص
بحثاً عن شبهه، قضى اليوم كله في البيت يسبح العريضة ويرقب
نصرفات وجدة

نظراتك غريبة ياسي عبد المقصود..

استعاذ بالله، يحاول ألا يعلو صوته، كل حركاته ونظراته تفسر
الآن، كل ما تقوله هي يحلل في دهنه إلى حيرة، إلى استعارات،
استحابتها أسرع مما يجب لطلبه سمعها من الطلوع إلى عشة امراح
فوق السطح. حجرة الأسطى عنده بمواجهتها، سائق النقل العام
عمرده، ينام اليوم كله، يبرل في الميعب يتسلم بونة عمله، ينظر إلى
امرأته، يهص صدرها، لم تعب ملاحظته عن عين دخروج بل سحر
قائلا «هل يوجهه الأسطى عنده كما يمك مقود العربة. ما يصايقه
اصطراؤه إلى ذكر هذا كله في العريضة. ربما سحر منه لسلوون،
لكه أحكم الصياغة، عدد من الجيران علموا بيته في ارسها.

أندوا بشراً وعلمو آمالاً، يعرفون شهرته بل أن أحدهم قال بالنص
«هذه العريضة ستدبح دخروج دجأ. لكن عند المقصود الآن
يتشمس ببطء لم يتشاجر مع امرأته يوماً، حتى بعد انقطاعها عن
بصر في السرير، يذكر الآن حديثاً لحس أفندي متوي عن شهوة
بعض النساء إذ يبلض الخامسة والأربعين، يطش، ألقب ساعة
الحائط ثلاث دقات محتصرة، بعد عد يحس اهاء المهمة المحددة ليدأ
جميع أهالي الحارة نومهم في الرابعة والنصف، سمع امرأته تتأهب،
نظر إليها وحنق في عينيه..

(٢)

ناق عشر دقائق،

في الواحدة يعلو مكبرات الصوت، يرن قليلا. يلقي دخروج
تحية الساء ويلص الدنيا القائمة، ويرثي الرمان القديم، ويؤكد أنه
سينتظر كل شيء، ثم يتلو ما وصل إليه من أخبار، يرد عليه
المض، وتلقى الحجارة على بواحد شقته المغلقة، مها حدث لن يفتح
الحاج حزة جزءاً من نافذته المظلة على الحارة. حتى الآن لم
يتعرض له دخروج، مع مرور الأيام وقيام الحاج في الحرة، أبيض
الحاج حرة، أن اعتنارات عديدة تدحل في امتناع دخروج عنه،
أهمها أنه قصي أكثر من ثلاثين عاماً ناظراً لمدرسة كتحد
الاستدائية، تلاميذه أصبحوا الآن رجالاً، يقادونه في الطريق
صباطاً ومهندسين وكسه في المصالح الحكومية، يصدحونه في المقهى
إذ يجلس مرتدياً حبلانه الأبيض متأملاً لاعبي الطاولة، أيضاً رعا

يعلم عنه دخروج موقعه عندما عرسوا عليه منذ عشر سنوات
الانتقال إلى مدرسة الروم الابتدائية مع ترقيته باطراً، لكنه
رفض، اثر اللقاء في الحفي الذي ارسله، ومرة أربع سنوات
كاملة قبل أن يصبح باطراً لمدرسته، يعرف أن دخروج لم يحب
ويرثي له. بالتأكد يعاني صيقاً وآلاماً، لو أحب طملاً وألحقه
بالمدرسة لأولاه عناية خاصة، الآن لا يصق بارعاج دخروج، ليعمل
ما يشاء، ليسب أهالي الحارة، ليعيد تنظيم الأمور فيها كلها يشاء،
فعلا كثير من الأوضاع يجب تقويمها، ليعدد لسكان نوعيات الطعام
لتي يجب أن يأكلوها يوماً، المهم.. ألا يذكر شيئاً عن سائه،
دخروج عام بكل شيء، مطلع قطعاً على أفكاره الودية، إنه أول
من ينفذ تعليماته، عندما طلب أن ينام الجميع في الراسع والصف،
أسرع الحاج حرة تطبيق هذا على بيته قبل انتهاء المهلة بيوم
بناته أبسر صيقاً وامتناعاً، أجبرهم على طاعته، لا بد أن يتأكد
لدى دخروج أن الحاج رجب طيب، مربي فاضل كما تتحدث عنه
كلمات الطلبة في المدرسة، كما وصفه المدير في العدد السوي من مجلة
المطقة التعليمية، في كل ليلة يصغي إليه، إذ يسكت دخروج
خطات يسك أنفاسه حشبة أن توجه الفقرة التالية صده، تتعاقب
عليه الانفعالات، ما يرعه أن يتحدث دخروج عن السات، بالأمس
أبدت سعاد ابنته ضيقاً، تعودت عمرها كله استذكار دروسها من
الحامسة حتى الحادية عشرة ثم تمام، كيف تغير نظامها وامتنحان
التوجيهية مقرب، أحاطها بدراعية، دفعها أمامه، كاد يك ماها،

قال.. لا ترعني، عمك دخروج لم يتعرض لما، عمك حر صباح
اليوم جاء بيومي اسائع بمصلحة السكة الحديدية، قدم إليه عريضة
قال أن نصف سكان الحارة وقع عليها والباقي سيوقع، سوف تحدث
العريضة صدى كبيراً لدى المسؤولين، خاصة بعد طلبات دخروج
العريضة من الأهالي وإصراره على نومهم مكربس وتوحيد طعامهم
اليومي، على أن يتولى الطهي سنان أو ثلاثة يوماً لكل الأسر مقابل
منع يتفاوت طبقاً لقدرة هذا وذاك يدفع أول كل شهر إلى حسن
أعدي سولي شخصياً قال بيومي أن المسؤولين سوف يتدحجون فوراً،
لأن العريضة سترسل بالتهلراف والمطوب فقط قرشاً والتوزيع،
الحاج حرة لم يدع بيومي يكمل، تفجر هدوء عمره كله.

« (سمع..) »

أسرع يطل من النافذة، زعق محاطباً أهالي الحارة، بيومي
وعيره مع أن بيومي يقف في الصلاة، إنه لن يوقع على أي عريضة
صد حاره القديم دخروج المرمي، (وها علا صوته قماً، وهذا ما
لم يعهده أهالي الحارة). به غير مربعج أبدأ، وما يفعله دخروج من
حقه قماً، سكنت خطة ثم رفق أنه لا يمت بصلة إلى حارة الطللاوي
ولا يصير من سكانها لأن مدخل بيته وشرفته الرئيسية تطل على
شارع قصر الشوق، أما النافذة التي تصه بالحارة فيرسل في طلب
بحر ليسدها في الحال، برغم هذا فصعني إلى دخروج وبمقد كل ما
يأمر به، خاصة وأن صحته وصحة الأولاد تقدمت بعد نومهم
ميكربس. إنه ينصح جيرانه نصيحة لوجه الله، الحذار، الحذار من

أي عمل حمي ضد دحروج، لأن الرجل مكشوف عنه الحجاب
والإلا.. كيف تأتي له معرفة نص عريضة عند المقصود أفندي
كاملاً؟؟
(٣)

مطرة تي آذان الفجر، يتحلل على مهل سواد الليل، تولد ملامح
السوت تتحلل ألوانها من جديد. ومن تبع خفي يظل بخار أبيض
مظور عالق بالمراع، بلاط الحارة يلعب تحب ضوء العائوس العاري
الوحيد الذي يبدو نيتاً شاحساً في مواجهة ضوء هاري ولبد، ومن
باعدة متسعة في الطابق الأول ليلعل الرابع تطل الست روحية مع
أولادها السعة صاموس يصعون إلى ما يقول دحروج، أيضاً عائله أم
حسي حتى الجدة المبحوز، سد قرة وجيزة سكت، بدت نافذة بيته
معلقة، بية اللون، لم يرها أحد تمتح أبداً، يعرفون أنه لن يكف
تماماً إلا في غام الساعة، لهذا ينتظرون الآن استشفاف الحديث في
أي خصة، فجأة استق صراح رفيع، حاد مسون، عويل متألف
يبدله الجسم والنفس معاً، ممدود مقبض فيه خلاصة العجز الإنساني
في مواجهة أمر قاهر، بدأ فردياً ثم أصبح جماعياً غلظاً عبوساً. نظر
الساھرون من السكان إلى منزل صالح أفندي، فمحت موافده
بصعوبة خرجت كلمة من بين العويل..
يا خويا..

استعاذ أهالي حارة الطلاوي بالله، كلهم بدون استثناء، بدا
خوف عامض على وجوه السيدات، يطرئون إلى ناعدة دحروج المفلتة

وكأها باب للمرح أوسد، أول أنس صاحبت امرأة صالح أفندي في
غام الدسة صبحاً محاطة دحروج، تحدث.. إذا أحاط بكل ما
يجري بالحارة، طالما أنه أوتي معرفة ما سحدث، وبعض الأهالي
بهبون برفع الحجاب عنه، فليقل لها إحد هل سيشفى ابنها نسير؟
وحيدها المريض منذ عام، الذي حارت به ولعت على جميع
المتشعيات، يذكر أهالي الحارة الآن صمت دحروج، ثم قوله
المقتضب «يا أم نسير، لو طبعت شمس يوم الثلاثاء على ابنك
ووجدته حياً سيعيش مائة سنة» ثم استأنف كلامه لعادي، الآن
يدو الثلاثاء جهماً لا يطاق وتدوب الأحشاء في العويل القاسي،
والشمس على وشك الشروق.

(٤)

حتى مفيب اليوم التالي عني ما أداعه دحروج. لم ندر حسية
ماذا يصدر هل تذهب مع أولادها الأربعة إلى ورشة الخاج بدق
صانع التأنيل الخشبية، توبول، تجمع عليه الخلق، تحكي كيف تروح
فتاة صغيرة، ويبالغ في تدليلها ولا يعطي بنته مصروفاً كافياً، لم
تقصر في حق، بداية حياتها هبة طرية، في سين رواجي الأولى
رأت امرأة شعناء جاحظة، تدفع سرباً من الأطفال وتحمل رصيعاً،
تقف أمام دكان موبيلياتي، تطالبه بالمصروف، تركها منذ أسابيع،
تذكر الدم المتدفق إلى وجه المرأة، عروق رفتها البارزة الررقاء،
يومها قالت «بدق ب يفعل هذا بي أبداً» قبل عودته تطمس إلى
نطاعة السب، تخط شعرها، تنهياً لاستقباله، تروي بدس بالأطاب

حتى تبدو ريانة يستريح إليها من عناء يوم طويل، الآن لا تجرؤ على الذهاب إلى الورشة، ربما يهددها، سنجري في أروقة الحاكم، تنوء في طرقاتها في نظرات الكتبة الشبان والعجائز، تبلى في الانتظار، لا تقدر على العودة إلى البلدة، شقيقها لن يحتملها مع أولادها، لن تطبق نظرات الحرم، يقلن فيما بينهن «لم تنفع في مصر» لا تدري ما تفعله الآن، هل ترمي نفسها من الطابق الرابع؟ تتخلص من ضيقها، تنهي أوجاعها ومصائبها، إذا لم تمت ربما قضت بقية عمرها عاجزة لا تصلح لعجين أو خبز أو غسل، من يدري ربما يرق قلبه إذ يراها مصابة، يحن ويرجع إلى أولاده.. جاراتها نصحتها بالمضي إلى دحروج. تقف تحت نافذته، ترلع صوتها راجية أن يدها أي السكك تسلك؟.

(٥)

.. أمام جامع سيدي مرزوق، يقف حسن أفندي متولي، يقرأ الفاتحة. فبأبعد لم يدر الحاج بيومي هل تم اللقاء مصادفة أم تعدد مقابلته؟ عيناه حراوتان، لم يم ليل الحارة، لم يتعود على النوم في قام الرابعة والنصف لا يمكنه الآن إلا الاضجاع أثناء حديث دحروج، قال حسن أفندي أنه لا فائدة من أي عمل تم حتى الآن ضد دحروج، حتى عريضة عبد المقصود أفندي المشهور بصياغة المرائض وحبكها لم تأت بأي نتيجة، بل أن أحد صورها المرسلة إلى جهة رسمية أعيدت إليه لأن البريد لم يستدل على عنوان إحدى

الوزارات، ثم ما هي حال عبد المقصود الآن؟ بيته خرب بعد عمار هجرته الست وجيدة بعد أن أغرقها بالشك، قال حسن أفندي أن ما يقوم به دحروج لا يوافق عليه، وهو لم يقصر في سبيل إيقافه عند حده، وأهالي الطبلاوي يعرفون كلهم، الكبير منهم والصغير أنه أول من ذهب إلى القسم على رأس وفد من الحارة وقدم بلاغاً وقع عليه وأملى بصوت عالي رقم بطاقته المائلية، وحتى الآن لم يحدث أي استدعاء لدحروج، فلم يره أحد يخرج من بيته، لم يظهر أبداً لدرجة أن بعض الشبان المتهورين الذين لا يدرون آخر العواقب، قالوا فيما بينهم لا وجود لرجل اسمه دحروج، وإلا فلين هو؟ أما الصوت الذي يحاطب الأهالي فربما بعض الأشقياء يريدون فرض أمور خطيرة على الحارة، وما الصوت إلا تسجيل يضعونه بين الحين والحين، وربما تتعرض الحارة لظاهرة خفية، وأمور غير مرئية وعندما ذهب أحدهم إلى بيت دحروج، تناقش مع مسعد أفندي أكد له وجود دحروج وامراته غويشة وهذا أمر لا ينكره إلا أجنبي عن الحارة أو مجنون، لأنه يعيش بينهم طوال عمره، صحيح لم يسمع له حس ولكنه لم يحتجب إلا بعد بدئه الحديث مع الأهالي، وقال مسعد أفندي أنه أدري بوجوده لأنه يسكن تحته ويسمع صوت تحركه بالليل وبالنهار، وهنا ارتفع صوت حسن أفندي، هل تعلم ماذا جرى يوم أسس لشكري أحد الشبان، قال بيومي أنه لا يعرف بسبب تغييه في السفر، قال حسن أفندي، في المساء قال دحروج كل ما تناقشوا فيه، وحذر لشكري شير الشكوك، ثم أُنذره بعدم الذهاب إلى

امتحان الكلية، ولو خالف قسديع الأدلة الدامغة بانتمائه إلى أحد التنظيمات السرية التي تعمل ضد الحكومة، قال حسن أفندي أيضاً، انه رجل هادئ بطبعه لا يجب الازعاج ولا بطيقه، قال حسن أفندي انه يؤمن بعدم فائدة النطح في الحجر، وأن النقش على الماء عبث، والتفخ في قرية مقطوعة مضیعة للوقت، لهذا كله، ولأسباب عديدة، بعضها خفي وبعضها معلن، يرجو من الحاج بيومي سحب توقيعه من... قاطعه الحاج قائلاً أنه أرسل العريضة فعلاً، صحيح أن السكان لم يوقعوا فعلاً كلهم لكنه أرسلها حتى يحرك المسؤولين، استفسر حسن أفندي عن الجهات التي أرسلت إليها العريضة وكتبها في ورقة، أبدى غمًا. قال أنه سيرسل إلى كل منها تلغرافاً يعلن تراجعه، سيكلفه هذا كثيراً لكنه سيضحي بماله إشاراً للهدوء، قال أن الناس يحبون لبعضهم الأذى. ولا يصح للحاج ولا لغيره إرسال العريضة بدون أخذ آراء من وقعوا عليها، احتد الحاج بيومي قائلاً، مجرد التوقيع يعني الموافقة على إرسالها، زعق حسني أفندي، أبدأ، أبدأ، لا يوجد ولن يخلق من يعلمه الأصول، هو موظف الحكومة الذي قضى عمره بإدارة مكافحة الدودة، قسم الفقس. علا صوت الحاج بيومي موضحاً، أنه هو أيضاً موظف حكومة، ليس السائق بالسكة الحديدية موظفاً رسمياً يتنص مرتباً شهرياً ويتقاضى علاوات أكثر من التي يتقاضاها موظف في الدرجة السابعة، مط حسن أفندي شتبه احتقاراً، توقف بعض المارة، تجمعوا حولها.

مشاهدات الرقيب صالح عبده، بالأمن الخاص في حارة الطبلابي عندما جاء يستطلع الأحوال..

«يا حاج بيومي.. يا حاج بيومي..»

كان البعض يجيب بتصفيق مائل، الضوء عال، والنهار شاحب مرتحل هدوء ثقيل مراق يسفاه، منذ دخوله الحارة لم ير طفلاً، أو امرأة، عادة يتصايح الصبية حوله، يشون خلله يتوقعون منه حركة عيفة مفاجئة فيحتفظون بمسافة معينة، ربما اتقن الأهالي هنا تربية أولادهم، حرموا عليهم اللعب في الحارة، توقف في الطابق الأول أمام باب جهم المنظر، خبط مرات، لم يجب أحد، دق الباب بعنف، حركة صغيرة مترددة، صوت شيشب، عاد يطرق الباب، يأتي همس، اثنان يتبادلان الحديث، لم يدر أهما رجلان أم امرأتان أم رجل وامرأة؟ صفق مرتين، علا صوت.

ما هذا الازعاج ألا نستطيع النوم في راحة؟

الحاج بيومي موجود؟

فوق.. فوق يا عالم ارحمونا ودعونا ننام..

طلع الحاج ملتفاً في عباءة قديمة من وير الجمل ورثها عن والده، عيانه ضيقتان، فيها آثار نوم، الشرطي صالح لا تزعه مثل هذه المقابلات. أمثال الحاج يتباهون قائلين.. طول عمرنا لم نمض إلى قسم بوليس، ولم نقف أمام نيابة.

«أنت قدمت»

لم يكمل الشرطي صالح حديثه، قاطعه الحاج، صوته رفيع حاد
كصغير قاطرة متحشرج.

«أنا لم أقدم ولا أشكو..

ولكن..»

«تنازلت يا أخي تنازلت عن الشكوى والعريضة، المصارين
تتصارع في البطن، ما بالك وغن جيران؟

ينظر الشرطي صالح دهشاً، قال الحاج أنه تنازل عن كل شيء
وأنه على استعداد للذهاب إلى السجن بسبب ازعاج السلطات، لكن
أن يسأل سؤالاً واحداً حول جاره العزيز لا.. ثم يجيب على الشرطة
اختيار الوقت المناسب للحضور إلى الناس، أما اقلاتهم في أحلى
ساعات النوم.. نزل الشرطي صالح إلى الحارة. نوافذ البيوت
مغلقة، تلفت حوله حائراً، دخل بيت دحروج، في منتصف الليل
قبل بدء الحديث اليومي، قيل أن دحروج خرج وتحدث للشرطي
فعلاً، وأن ضحكاته سمعت واضحة لمن لم يدرکه النوم في المواعيد
المحددة، أيضاً استفسر دحروج عن بعض الأشياء، أبدى اهتمامه
تجاه أسماء معينة، أبدى الشرطي دهشة قال دحروج أنه يعرف
هؤلاء كلهم وكبيرهم رهن اشارته، ثم أوصاه بإتمام إجراءاته على أتم
وجه، في هذه اللحظة دخل الحارة المعلم يونس القران، رآه
الشرطي صالح يرفع يده بالتحية إذ يمر تحت بيت دحروج، النوافذ
مغلقة لكنهم يثنون أنه يراهم، يعرف من ألقى السلام ومن لم يلقه،

يعرف من جرؤ على تناول الطعام بمفرده خارج الحارة أو في بيته،
الحاج حمزة يفتح النافذة يومياً قبل نومه، ويزعق بالسلام حتى بعد
تعرض دحروج بالكلام لابنته الصغرى، وذكر بعض تفاصيل
علاقتها بمدرس الكيمياء، أم تيسير منذ رحيل ابنها، بمجرد أن
يبدأ دحروج حديثه تنزل مهولة بقميص النوم ترفع ذراعها زاعقة
تحت النافذة «الله أكبر.. الله أكبر» عليه وعلى شبابه، دحروج
بركة، أي مخلوق يجرو على شكواه ستناله، مصائب ومحن، وتفرقه
رزايا، حتى الحاج أحمد تاجر الورق، المريض بأصابه، قال لكل
من زاره أخيراً أن صوت دحروج الليلي لا يزعه بل ينبؤه أن
شفاه سيم قريباً، وأنه قبل ما كلفه به دحروج من قيامه بدور
الوسيط بين المتخاصمين في الحارة بعد فترة أيقن رافة دحروج به
ومراعاته لظروف مرضه، لم يعد يتخاصم أحد، ومن لديه وجيعة
يمضي بها طارحاً إياها أمام دحروج، أَسَدَ إليه أخف المهام، وفي
الواحدة صباحاً يقف بالشرقة ويضحك ويهز رأسه موافقاً، يصبح
متحسناً ما يقال، عند باب الحارة توقف الشرطي صالح عبده لم ير
أحد، لا ينوي توجيه أي سؤال، رأى طفلاً صغيراً يتجه إلى مدخل
الحارة لعت عيناه لحظة واتجه إلى الطفل الغنى حتى قارب رأسه..

اسمك يا شاطر؟

سعد..

أنت من هنا.. من حارة الطيلوي..

أوما الطفل، بدا قلقاً، الأطفال لا يكذبون، كواجب أخير
سيحاول أن يتعرف منه..

- يعني ألم تسمع ميكروفوناً أبداً بعد..

هز الطفل رأسه، ابتسامة مرتعشة قلقة..

خيالات يا شاويش.. أبدا.. أبدا..

هل تنام يا بني..

رفع الصغير عينين شاحبتين، بدا متعجباً، أي سؤال هذا؟ ما
الذي يقوله هذا الشاويش؟ انفلتت يجري مسرعاً.

* * *

«تأثيراً على المذكرة الإيضاحية رقم ١٠٦ م وعلى تقرير
الشرطي صالح عبده، وعلى عرائض مقدمة من بعض أهالي حارة
الطبلاوي، وشكاوى من مجهولين، ونصوص مكالمات تليفونية،
لمواطنين رفضوا ذكر أسمائهم.

« يحفظ... »